

التبشير والاستعمار في الاستشراق الفرنسي

لويس ماسينيون ودوره السياسي في الشرق 1916-1917 م

الملخص

أ. د. جواد كاظم النصر الله^١

م. م: آيات عزيز جري^٢

يتناول البحث البواعث التبشيرية والاستعمارية التي كانت الدافع الخفي وراء الطلائع الاستشراقية التي كرّستها لتحقيق مصالحها في الشرق، والتعرف عليه عن كثب، ومن ثم السيطرة عليه واستغلال خيراته، واخترنا من خلال هذا الموضوع إظهار الجانب المضمّر والمغيّب للدور السياسي الذي مارسه المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، والذي سكّنت عنه أقلام المؤرخين والكتّاب في الدراسات العربية على الرغم من كونه في غاية الأهمية؛ وبناءً على أهمية الموضوع قسّم هذا البحث إلى ثلاث محاور رئيسة، تناول المحور الأول: الاستشراق الفرنسي وبواعثه التبشيرية والاستعمارية، أمّا المحور الثاني: لويس ماسينيون المستشرق الفرنسي حياته الولادة والنشأة، والمحور الثالث: لويس ماسينيون ودوره السياسي في الشرق للفترة (١٩١٦-١٩١٧م)، وقد توصل الباحث في نهاية البحث إلى عدّة نتائج مهمة، ويأتي في طليعتها الدور الذي أسنده الغرب لشخصه من المستشرقين لتحقيق غايات سياسية، وتقسيم الشرق إلى مستعمرات تابعة لهم.

الكلمات المفتاحية: التبشير، الاستعمار، الاستشراق، فرنسا، لويس ماسينيون

١. استاذ في جامعة البصرة كلية الآداب - تخصص فكر إسلامي / استشراق.

٢. تخصص استشراق.

مقدمة

سعت الحكومات الغربية للإفادة من جهود المستشرقين، والرحالة، والمبشرين، في خدمة طموحاتها التوسعية، فعملت الجمعيات العلمية والفروع الأكاديمية التي ظهرت في فرنسا بالذات وغيرها من البلدان الأوروبية لدراسة الشرق، والتعرف عليه، وتشييد الأرضية الصالحة لحكمه^١، ونظراً لتعدد بواعث الاستعمار وسياساته، تمازجت المصالح التبشيرية والاستشراقية والاستعمارية، تحت غطاء القضايا العلمية، وتوجيه من الإيديولوجية الغربية المتعالية تجاه الشرق، وحلّ الاستشراق محلّ عنوان التبشير الممجوج من العالم العربي على وجه الخصوص، وأمنّ الاستعمار الحماية للمستشرقين والمبشرين وزوّدهم بالمال والسلطان، وكانت الإرساليات التبشيرية في مقدّمة الاستعمار وطواله، كما اعتمد التبشير على الاستشراق في الحصول على المعلومات حول المجتمعات المراد استهدافها فيما بعد، واكتسب التنصير مفهوماً ومعنى أوسع من مجرد الدخول في النصرانية^٢، ومن أولئك المستشرقين الذين جمعوا عدة أدوار، الأكاديمي في السوربون، وشيخ المستشرقين الثاني بعد سلفستر دي ساسي، (لويس ماسينيون) المتخصّص بالشرق والدراسات الإسلامية، الذي عمل من خلال مكانته على خدمة مصالح بلاده؛ على الرغم من محاولاته التوفيقية بينها وبين الشرق بعد أن خامر عقله سحر الضيافة الشرقية.

أولاً: الاستشراق الفرنسي وبواعثه التبشيرية والاستعمارية

تعدّدت بواعث الاستشراق الفرنسي^٣ ودوافعه، شأنه في ذلك شأن باقي المدارس الاستشراقية

١. لوكمان، زكاري، تاريخ الاستشراق وسياساته، ١٦٠-١٦١.

٢. الكعبي، شهيد، صورة أصحاب الكساء، ١١٢-١١٣. النصر الله، جواد، والكعبي، شهيد، الاستشراق الفرنسي والبعثات اليسوعية لقاء الاستشراق والتبشير، مجلة دراسات استشراقية، الصادرة عن: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية كربلاء - العراق، العدد ٤، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٣. لمزيد من التفاصيل عن الاستشراق الفرنسي يُنظر: هوار، كليمان، الدروس العربية في فرنسا، ترجمة: الشفالية عبد الله بك، منشور ضمن كتاب (كتابات المستشرقين عن نتائجهم) جمع ودراسة: حامد ناصر الظالمي، ط ١، البصائر، بيروت، ٢٠١٤. ص ١٥٥ - ١٧٨. الحاج، ساسي، نقد الخطاب الاستشراقي - الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ١٠٧/١ - ١١٧. كوثراني، وجيه، من الاستشراق إلى مناهج الإنسانية (المدرسة الفرنسية نموذجاً)، مجلة معهد الدراسات العربية والإسلامية، لندن، العدد الأول، ١٩٩٩. ص ٨١ - ١٠٢. المقدادي، فؤاد كاظم، الإسلام وشبهات المستشرقين (ط ١، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم - إيران ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م)، ص ٨٦ - ١٢٨. الهاشمي، حسن علي، قراءة نقدية في كتاب تاريخ القرآن للمستشرق ثيودور نولدكه، المركز الإسلامي للدراسات الاستشراقية، ط ١، ٢٠١٤. ص ٤٨ - ٥١، جباد: حاتم كريم: الإمام علي عليه السلام في كتابات بعض المستشرقين الفرنسيين، مجلة دراسات استشراقية، العدد الثاني، ٢٠١٤. ص ٦٣ - ٨٠. النصر الله، جواد، الكعبي، شهيد كريم، دراسات ورؤى استشراقية في التاريخ الإسلامي، ط ١، المركز الاستراتيجي للدراسات الاستراتيجي، النجف، ٢٠٢٢ م. في التاريخ الإسلامي ص ١٦٣ - ١٦٧.

المختلفة^١، ولا غرابة أن عُدَّ في مقدمتها الباحث الديني^٢، والباحث الاستعماري الذي ستركز عليه خلال هذا البحث، إضافةً إلى بواعث أخرى لا تقل أهميةً كالباعث الاقتصادي^٣، والنفسي^٤، كما مارست الإيديولوجيا^٥ دوراً كبيراً في توجيه الاستشراق.

أ. الباحث الديني والتبشيري:

يرى بعض المؤرخين أن الدافع المبكر للاستشراق بصورة عامة، ومنها الاستشراق الفرنسي، يعود إلى حقيقة واحدة تجمع جميع المدارس الاستشراقية، وهو الصراع الديني التوسعي الذي دار بين الشرق والغرب (الإسلامي/النصراني)، وحروب الأندلس، وبعدها الحملات الصليبية، ممّا يعني توحد الإيديولوجية الفكرية للاستشراق في طلائعه المبكرة من خلال محاولة الانقضاض عليه، وتقويض دعائمه، والاستيلاء على أراضيه وخيرات^٦.

ظهر الإسلام كقوة سياسية كان لها دورها الفعال في التوسع العسكري على حساب المناطق التي كانت تابعةً للإمبراطورية البيزنطية، وأخذت البلدان تسقط الواحدة تلو الأخرى على أيدي المسلمين، وفقدانها آسيا الصغرى في القرن التاسع من قبل السلاجقة، وسقوط صقلية التي تمثل سيطرتها على البحر، وفي الغرب فتح المسلمون إسبانيا ما عدا الجزء الشمالي الغربي منها الذي شنت منه حروب الاسترداد، وبذلك أصبح المسلمون يشكلون تهديداً للعالم المسيحي^٧.

لذا عمد الغرب إلى إيجاد طريقة للتخلص من الخطر الإسلامي، وذلك بإدخال الفلكلور العالمي والأدب الكلاسيكي والاستعانة بالخيال المتعصب، واستخدام آليات عكس النصوص لتشويه صورة الدين الإسلامي وشخصه المقدسة، وعلى سبيل المثال قدّم غيلبرت نوغنت^٨

١. عن خصائص هذه المدارس ينظر: الحاج، ساسي، نقد الخطاب الاستشراقي، ١٠١/١ - ٢٢٤.

٢. مراد، يحيى، افتراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها، ٣١ - ٣٢.

٣. المصدر نفسه، ص ٢٨ - ٢٩.

٤. عن الدافع النفسي يُنظر: المصدر نفسه، ص ٢٤ - ٢٦.

٥. المصدر نفسه، ص ٢٩ - ٣٠.

٦. زقزوق، محمود، الاستشراق والخلفية الفكرية، ٢٧ - ٢٨.

٧. فوك، يوهان، تاريخ حركة الاستشراق، ١٥؛ لوتمان، زكاري، تاريخ الاستشراق وسياساته، ٦١ - ٦٦.

8. Gulbert Von Nogen

(١١٢٤-١١٣٠م)^١ أول سيرة للنبي ﷺ بتقرير موجز شوّه صورته المقدّسة، وباعتراف منه: بأنّه لا يمتلك مصادر مكتوبة، وأنّه كان يعتمد على آراء العامة، وأنّه لا يمتلك أيّة وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب في نقده الأيدلوجي إلاّ أنّه يعلّل ذلك بالقول: لا جناح على الإنسان إذا ما ذكر بالسوء من يفوق خبثه كلّ سوءٍ يمكن أن يتصوّره المرء^٢.

كما أنّ أول ترجمة للقرآن الكريم برعاية بطرس المبجل^٣، كان الهدف منها هو تشويه صورة الدين الإسلامي، وعده تأليفاً من النبي؛ لذلك جاءت مشوهة ومخلّة بالديانة الإسلامية، وكان يقول: «إذا بدا أنّ العمل الذي أدعو إليه غير ضروري الآن؛ لأنّ العدو لن يتأثر بهذا السلاح. أجب أنّ بعض الأعمال تتم من أجل ضرورات الدفاع، فإذا لم يكن بهذا الطريق إعادة المسلمين إلى المسيحية الصحيحة، فلا أقل من أن يستفيد العلماء المسيحيون من عملنا في مجال دعم إيمان المسيحيين السذج، الذين يمكن أن تضرّ هذه الصغائر عقيدتهم»^٤.

هكذا بعد أن أصبح الإسلام يشكّل خطراً على العالم النصراني^٥، ظهرت حركات المبشرين، وفي طلائعهم المستشرقون الذين اهتموا بدراسة الإسلاميات^٦، حاول بعضهم الانقضاض على الدين الإسلامي، وتقليص مساحته بنشر أفكار شائنة؛ لإزالة العقيدة الإسلامية من النفوس

١. لا تحتوي المصادر على معلومات دقيقة عن حياته أو مكان ولادته، ومن المرجح أنّه ولد في عام ١٠٥٣م، ويفترض أنّه ولد في بيكار، أو المناطق المحيطة بها، من عائلة ثرية كاد أن يصبح كاهناً، لكنه حرم من هذا الامتياز؛ إذ كرّست أمه ابنها (غليبرت) للعدراء، وأرادت أن تجعل منه رجل دين. تعلّم في أحد الأديرة، وشعر أنّه يتفوّق على الرهبان في تعلّمه، وكان غليبرت تابعاً لملك فرنسا على هذا النحو، وشارك في حرب هنري ضدّ دوق نورماندي، تم أسره من قبل الأخير، ومات في الأسر عام ١١٣٠م.

Bourgin: Georges, Guibert de Nogent. Histoire de sa vie (1053-1124) Publisher Paris, Publication date 1907, I-IV .

٢. سودرن، ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا، ٦٨، رودنسون: مكسيم، جاذبية الإسلام، ٣٣-٣٤، وص ١٦-٢١.

٣. بطرس المبجل راهب فرنسي (١٠٩٢-١٠٩٤)، من الرهبانية البندكتية، ولد ١٠٩٤، وتوفي ١١٥٦، عينته فرنسا رئيساً على ديركلوني لسعة اطلاعه ونباهته. العقيلي، نجيب، المستشرقون، ١/ ١٢٢-١٢٣.

٤. سودرن، ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا، ٨١-٨٢، رودنسون، مكسيم، جاذبية الإسلام، ص ٢٣، الحاج، ساسي، نقد الخطاب الاستشراقي، ٤٤/١.

٥. يُنظر: مراد، يحيى، افتراءات المستشرقين على الإسلام، ٤٩ - ٥٢، ٦٤ - ٧٢.

٦. المصدر نفسه، ص ٩٧ - ١١٠.

والتشكيك فيها^١، وأصبح من أولويات الاستشراق بصورة عامة تنصير المسلمين، والعمل على نشر الديانة المسيحية بينهم عن طريق تحويل هذا المفهوم، لا سيما أنه موجه إلى مجتمع متدين كالمجتمع المسلم، والحد من انتشار الديانة الإسلامية بين النصارى، وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية، الأمر الذي يستدعي وجود مستشرقين، والإفادة منهم في هذا الشأن^٢ كما أشار إلى ذلك المستشرق رودري بارت قائلاً^٣: «كان موقف الغرب المسيحي في العصر الوسيط من الإسلام، هو موقف الدفع والمشاحنة فحسب، صحيح أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعاً ما، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للمسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير، وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا تلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل، وكانوا يتلقفون بنهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام»^٤.

وفي السياق نفسه يتحدث الكاتب أدوين بلس، قائلاً: «منذ أن انتشر الإسلام، وظهر على الدين كله، وأهل الكتاب من يهود ونصارى يضمرون له ولأهله الحقد العظيم، وزاد الأمر بالنسبة إلى النصارى أن دخيلاً دخل على نفوس قاداتهم الدينيين والسياسيين منذ الحروب الصليبية، وارتداد الصليبيين على أدبارهم مهزومين إثر حروب دامت قرنين من الزمان، فولد هذا في نفوس هؤلاء أحقاداً وألاماً صعب عليهم أن ينسوها، فكان من نتائجها مخططاتهم الهادفة للغارة على العالم الإسلامي بحروب من نوع آخر، منها مخططات التبشير بالنصرانية بين الشعوب الإسلامية،

١. الجندي، أنور، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، ص ٤٢-٤٤.

٢. النملة، علي إبراهيم، المستشرقون والتنصير، ص ١٧.

٣. رودري بارت (Rudi paret) (١٩٠١-١٩٨٣): مستشرق ألماني درس اللغة العربية، وحصل على الدكتوراه لمرتين في عامي ١٩٢٤م و ١٩٢٦م، فُعين مساعداً في قسم الدراسات الشرقية، ثم شغل كرسي علوم الإسلام والساميات في جامعة بون، ثم انخرط في السلك العسكري في خدمة الجيش في ليبيا، واصل التدريس بعدها في جامعة توبنجن حتى أحيل للتقاعد عام ١٩٦٨م، كما كان يتميز بشيء من الموضوعية في طرحه للإسلام، وله دور في تعريف الأوربيين بحقائق القرآن والإسلام. من أهم مؤلفاته: ترجمته القرآن إلى اللغة الألمانية والتعليق عليه، ومحمد والقرآن، والإسلام والتراث الثقافي، وكتاب الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية. يُنظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ٦٢-٦٣.

٤. بارت، رودري، الدراسات العربية والإسلامية، ص ١٥.

أو تحويل المسلمين عن دينهم ولو إلى الإلحاد والكفر بكلّ دين»^١.

وأشار المستشرق والمبشر الفرنسي الفرد لو شاتليه في هذا الصدد^٢، قيام المبشرين على اختلاف نزعاتهم الدينية والمذهبية، برسم خارطة مغايرة للعالم الإسلامي، ومن ثم الإغارة عليه عن طريق إرساليات التبشير، وإحداث تغيير جذريّ فيه لتحويل المسلمين عن تعاليمه، وتقليل أظافره للانعراض عليه^٣.

إذاً عمل المستشرقون على اختلاف دياناتهم، ومذاهبهم، واتجاهاتهم الفكرية على خدمة مصالحهم، وتقديمها على الموضوعية العلمية، وهكذا برز الدافع الديني للاستشراق واضحاً من قبل المتتمين للديانة النصرانية، أو ما يُسمّى بالاستشراق النصراني؛ لما احتلّه الهدف التنصيري من مكانة بارزة على مسار الدراسات الاستشرافية^٤.

ب. الباعث السياسي والاستعماري:

لقد تميّز الاستشراق الفرنسي كباقي المدارس الاستشرافية الأوربية الأخرى بالطابع الإمبريالي^٥ التوسّعي على حساب الشرق الإسلامي. ومع الاتّصال المباشر الذي حدث بين فرنسا وبلدان العالم

١. الميداني، عبد الرحمن، أجنحة المكر الثلاثة، ص ٦١.

٢. الفرد لو شاتليه (Alfred Le Chatelier): مستشرق فرنسي ولد عام ١٨٥٥م. اهتمّ بالأوضاع الاجتماعية والسياسية في العالم الإسلامي، وعلى وجه الخصوص الإسلام في منطقة إفريقيا والمغرب العربي، وكُلف برئاسة البعثة العلمية في مراكش عام ١٩٠٥م؛ لإنشاء (مجلة العالم الإسلامي)، وكان أول من أشرف عليها، واستمر إصدارها حتى عام ١٩٢٦م، حتى حلّت محلّها وعدّت استمراراً لها (مجلة الدراسات الإسلامية) التي أشرف على إصدارها تلميذه لويس ماسينيون، وما زالت تصدر بشكل غير منتظم بعد وفاته وحتى اليوم، كما عين في الكوليج دي فرانس، إذا تولّى كرسي علم الاجتماع الإسلامي، وخلفه من بعده أيضاً لويس ماسينيون، توفيّ لو شاتليه عام ١٩٢٩م. ومن أهم مؤلفاته: الإسلام في القرن التاسع عشر، والإسلام في إفريقيا الغربية، والطرق الصوفية الإسلامية في الحجاز. (بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ٥١٧).

٣. لي، شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي.

٤. النملة، علي إبراهيم، المستشرقون والتنصير، ص ١٥-١٦.

٥. الإمبريالية: هي سياسة تتبّعها دول مُعيّنة، وتعني توسيع السُلطة والسيطرة عن طريق استخدام القوة، التي غالباً ما تكون قوّة عسكرية، وتتم من خلال الاستيلاء على الأراضي وفرض السيطرة السياسية والاقتصادية عليها، وتُعدّ الإمبريالية سياسة غير أخلاقية، وغالباً ما يتم استخدام هذا المصطلح لإدانة السياسة الخارجية للدول المُعادية. الإمبريالية هي سياسة الدول القوية على الضعيفة انتشرت على نحو واسع بعد الثورة الصناعية وخاصّة بين الدول الأوروبية؛ من أجل السيطرة على المواد الخام وأسواق المُنْتِجات الصناعية. ينظر: الإعلام الجديد: ما معنى مصطلح إمبريالية؟ ص ١ - ٥٢. يونان، ليب رزق وآخرون، أوروبا في عصر الرسالة، ٧.

العربي والإسلامي، وانطلاقاً من اكتشاف (رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٨م)، وتدقق المستشرقين بعناوينهم المتعددة من علماء ومنقّبين ومبشرين وغيرهم، وافتتاح مراكز التبشير في أفريقيا بدءاً من الكونغو عام (١٤٩١م)، وعملها للتعرف على هذه القارة، والتمهيد بالتعاون مع عصابات تجار الرقيق؛ لدخول فرنسا بوصفها أكبر قوة غازية، ثقافياً، واقتصادياً، وعسكرياً لهذه القارة^١.

ثم تأكد وتوسّع هذا التواجد والاتصال في القرن التاسع عشر، ولا سيّما مع حملة نابليون بونابرت على مصر والشام خلال المدة (١٧٩٨-١٨٠١م)، التي يعدّها بعض الباحثين البداية الحقيقية للاستشراق الفرنسي؛ إذ عمل على إقامة قاعدة للفرنسيين في مصر، وقطع الطريق بين بريطانيا ومستعمراتها في الشرق، واستغلال موارده والاستفادة من علومه الضخمة^٢.

وكان قد أفاد من الكتب والتقارير التي كتبها الرحّالة والقناصل الفرنسيون، وفصلوا فيها أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بعد اطلاعهم على واقع البلاد العربية^٣، وانفتحت أبواب مصر أمام المستشرقين الفرنسيين عام (١٨١٤م)، بعد توقيع محمد علي باشا^٤ والي مصر اتفاقية التعاون مع فرنسا، وما أعقبها من احتلال فرنسا للجزائر عام (١٨٣٠م)^٥، وتونس عام (١٨٨١م)، وعملت فرنسا على تدعيم نفوذها السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي في البلدان الشرقية، فزار الشرق في النصف الأول من القرن التاسع عشر حوالي (١٥٠) فناً فرنسياً في مختلف الميادين^٦.

١. المقدادي، فؤاد، الإسلام وشبهات المستشرقين، ص ١٠١-١٠٢.

٢. الحصين، سلطان، الاستشراق الفرنسي والسيره النبوية، ص ٥٧. بيطار، زينات، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، ص ١٨٢.

٣. الحاج، ساسي، نقد الخطاب الاستشراقي، ١/ ٨٨-٨٩.

٤. محمد علي باشا: ولد عام ١٧٦٩م، ويعدّ مؤسس مصر الحديثة، وحاكمها الفعلي منذ عام ١٨٠٥م، حتى عام ١٨٤٨م. وُلد في مدينة قولة اليونانية، ووصل للحكم بانقلاب عسكري بعد إضعاف المماليك. أرسى دعائم دولة مركزية عبر إصلاحات عسكرية واقتصادية وتعليمية، وأنشأ جيشاً نظامياً قوياً، وطوّر الزراعة والصناعة. توسّع بسيطرته على السودان والحجاز وبلاد الشام، لكن طموحاته اصطدمت بالقوى الأوروبية والعثمانية، ما أجبره على التراجع لاحقاً. تُعدّ حقبة حكمه نقطة تحوّل في تاريخ مصر رغم انتقاد سياساته القمعية. للمزيد يُنظر: الأيوبي، إلياس، محمد علي سيرته وأعماله، ص ٧٠. وصبري، محمد، تاريخ مصر الحديث، ٢٢٢-٣١.

٥. الحسني، محمد الهادي، الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال نصوص معاصرة، (ط ١)، جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع رقم ٨٩ حي باحة (الليدو) - المحمدية الجزائر، س ٢٠٠٦م.

٦. بيطا، زينات، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، ص ١٠.

وقد أسّس الاستشراق الفرنسي خلال وبعد غزو نابليون في مصر عددًا من المعاهد والمدارس والكليات الاستشراقية الفرنسية^١.

هذا مضافاً إلى المكتبات الضخمة التي تزايد ما تضمّه في بناياتها من نواذر المخطوطات النفيسة، وأمّهات المصادر العربية، وقطعاً من النقود والأختام والأوسمة والخرائط. ويكفي أن نشير هنا إلى أنّ مكتبة باريس الوطنية^٢ وحدها تحتوي على (٦٠٠٠٠٠٠) من الكتب والمخطوطات، منها نحو (٧٠٠٠) مخطوط عربي، كان نابليون قد أسهم بتوفير (٣٢٠) مخطوط منها بعد حملته على مصر. ومن بين هذه المخطوطات قطعٌ من القرآن الكريم تعود إلى القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة، فضلاً عن كتب من القرن الثاني أو الثالث الهجريين^٣.

وقد عدّ المستشرق الفرنسي روبري مانتران^٤ إنشاء هذه المكتبة والكلية الملكية نقطةً مميزةً لانطلاق الاستشراق الفرنسي^٥. وعدّ بعض الباحثين ظهور شخصية المستشرق الفرنسي (سلفستر دي ساسي ١٧٥٨ - ١٨٣٨ م) بدايةً حقيقيةً لظهور الدراسات العلمية المنظمة الموضوعية الحديثة في مجال الحركة الاستشراقية، التي كانت مدينةً له، ولمدرسته التي انتمى إليها عشرات الرواد في مجال الاستشراق من مختلف البلدان الأوروبية، ولنزعته التي جعلت الاستشراق يتحرّر من المرجعية الدينية^٦.

١. العقيلي، نجيب، المستشرقون ١/ ١٣٨ - ١٤٠، ١٥٤، ١٥٥. نصري، أحمد، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم، ٢٦ - ٢٧. سعيد، إدوارد، الاستشراق، ٢١٣. النصر الله، جواد، الكعبي، شهيد، دراسات ورؤى استشراقية، ١٦٧ - ١٦٨.

٢. بعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م، قامت حكومة الثورة بجمع المخطوطات العربية في فرنسا من الأديرة، والكنائس، ومكتبات ملوك فرنسا ووزرائهم في مكتبة مركزية أُطلق عليها المكتبة الامبراطورية في عهد نابليون، ومع عودة الملكية سميت المكتبة الملكية، ثم عاد اسمها إلى الأول المكتبة الوطنية في العهد الجمهوري، ولا تزال حتى اليوم. يُنظر المقداد، محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص ٥١.

٣. العقيلي، نجيب، المستشرقون، ١٥٥/١ - ١٥٧.

٤. ولد روبري مانتران (Mantran R) في باريس في ١٩١٧، تدرّج في التعليم حتى نال الدكتوراه في الآداب من السوربون في ١٩٦٣، عُيّن أستاذًا للغة التركية والحضارة الإسلامية في جامعة بروفانس، واشترك في كثير من اللجان حول الشرق والإسلام، له مؤلفات ومقالات كثيرة ولا سيّما حول الدولة العثمانية وتركيا. للمزيد عن ترجمته يُنظر: مراد، يحيى، معجم أسماء المستشرقين، ص ٦٦٤ - ٦٦٥.

٥. مانتران: روبري، الاستشراق الفرنسي أصوله، تطوره، آفاقه، ص ٣٣.

٦. سعيد، إدوارد، الاستشراق، ٢١٢ - ٢١٣. ودرويش، أحمد، الاستشراق الفرنسي، ٢٤.

وتحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بأقدم درهم عربي إسلامي، ضرب في مدينة البصرة عام ٤٠ هـ، خال من أي إشارات أجنبية، ممّا دعا بعضهم للقول إنّ الإمام عليّاً عليه السلام هو أوّل من ضرب عملةً عربيةً إسلاميةً، سابقاً بذلك الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي أعاد ضربها سنة ٧٤ هـ^١.

على أنّ تصنيف أطر الاستشراق على نحو ما سبق عرضه، لا ينفي تداخلها؛ فعادةً ما نجد الأيديولوجية الدينية تتداخل بمثلتها السياسية، وتُسخر القضايا العلمية لتحقيق كليهما، وهكذا الحال في المنحى الاقتصادي والاستعماري.

فقد عملت المراكز التبشيرية على إعداد جيوشٍ من المبشرين والمستشرقين للعمل في البلاد العربية، وبلغ عدد هؤلاء المرتبطين بالبابوية قبل الحرب العالمية الأولى (٧٣٠٠٠)، أغلبهم من الفرنسيين لخدمة الأهداف الثقافية والامبريالية لفرنسا^٢؛ فكانت الحركة الاستشرافية الفرنسية مؤاتيةً للعمل التبشيري، والتقت أهدافها مع المراكز المؤسّساتية والتعليمية التي أنشأتها البعثات التبشيرية، لمهمة فرض الحضارة الغربية على القسم الباقي من العالم^٣.

ولعلّ من أبرز الأمثلة على ذلك قيام المبشرين اليسوعيين في منطقة الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان بتوسيع نفوذهم التبشيري في بلاد العلويين بين طوائف (النصيرية)؛ ليفرضوا على المستضعفين منهم المذهب الكاثوليكي. فزعموا أنّ نفرًا من هؤلاء (النصيرية) جاءوا إلى الراهبات اليسوعيات في (صافيتا)، وطلبوا منهن أن يقبلنهم في المذهب اللاتيني، وادّعوا أنّ الراهبات اتصلن ببيروت؛ فأسرع بعض الرهبان اليسوعيين إلى بلاد العلويين، واستكتبوا رجلاً من العلويين اسمه (محمد تامر) - أو زعموا ذلك - كتاباً، ثم أرسلوا كتابه إلى البابا! الذي يقول بزعمهم: إنّ (النصيريين) أحفاد الصليبيين، وإنّ التعليم الديني عند الرهبان جعلهم يرون النصرانية خير الأديان! وهكذا تمكن اليسوعيون بمساعدة الجيش الفرنسي أن ينقلوا (٢٢ أسرة)، أو نحو (٨٠ شخص) إلى المذهب المسيحي بعد أن جمعوهم في منطقة (جنية رسلان في ١٥ / آب / ١٩٣٠م)، وعلّقوا على ذلك بقولهم: «لقد خطونا الخطوة الأولى» (Le premier pas était, il était décisif)، ولقد كانت خطوة حاسمة. وبعد شهرين من هذه الحادثة ذهب الأب (شاتنور) رئيس الجامعة اليسوعية ببيروت

1. PAR M. Henri Lavoix: Catalogue des monnaies Musulmanes de La bibliotheque Nationale. Paris . 1887. P58. no.158 .

ولمزيد من التفاصيل يُنظر: النصر الله، جواد كاظم، الإمام علي عليه السلام، وتعريب النقود في الإسلام، ص ٢٥٦ - ٢٦٤.

٢. المقدادي، فؤاد كاظم، الإسلام وشبهات المستشرقين، ص ١٠٧.

٣. عترسي، طلال، البعثات اليسوعية، ٢٦. ويُنظر: النصر الله، جواد، والكعبي، شهيد، دراسات ورؤى استشرافية. ١٦٨-١٧٦.

مع خمسة من المبشرين ليؤسسوا مركزين للتبشير في بلاد (العلويين)، و(قرق خان)^١.

وقد تكفل المبشر والمستشرق الفرنسي هنري لامنس (١٨٦٢ - ١٩٧٢م)^٢، بتغذية وتأكيد نصرانية بلاد العلويين من خلال بحوثه ومقالاته - ذات النتائج المعدّة مسبقاً - بهذا الخصوص كمقالته في مجلة المشرق (دولة العلويين)، ومقالتيه (النصيريون)، و(هل كان النصيريون نصارى)، في مجلة العالم المسيحي^٤.

ومثل سلاح التبشير الاستعماري الاستشراقي شخصيات بارزه، إذ أصبح التبشير ركيزة حتى لأكبر أعمدة الاستشراق الفرنسي (شيخ المستشرقين) سلفستر دي ساسي الذي كان في طلائع جيوش فرنسا ومعروف بمواقفه التبشيرية حتى قيل عنه: إنه وفق بين طريقة العالم وطريقة المعلم للكتاب المقدس^٥.

إنّ المنهج الذي تبنته المدرسة الاستشراقية الفرنسية على يد (ساسبي) تبنته أيضاً جميع المدارس الاستشراقية في أنحاء أوروبا، من خلال التلاميذ الذين كانوا يتوافدون على باريس للدراسة على يديه في المدرسة العامة التابعة للمكتبة الوطنية^٦ وقد لقّبه (عبد الرحمن بدوي) بشيخ المستشرقين الفرنسيين، على الرغم من أنّ الغموض يحيط بالكيفية التي صار بها (ساسبي) مستشرقاً؛ إذ لا يُعرف أسماء أساتذته، ولا كيفية توجّهه للتخصّص في الدراسات العربية والشرقية بصورة عامة! ومع ذلك كان يتقن العبرية والعربية والألمانية، والانجليزية، والأسبانية، والإيطالية، والفارسية^٧.

وكان نابليون منحه لقب بارون عام (١٨١٤م)، وكان (ساسبي) منذ عام (١٨٠٥م) يشغل منصب المستشرق المقيم بوزارة الخارجية الفرنسية. وكان عمله فيها - الذي ظلّ بلا أجر حتى عام (١٨١١م) - ينحصر في البداية بترجمة نشرات الجيش الفرنسي، و(المانيفستو)، أو البيان الذي

١. فروخ، عمر، وخالدي، مصطفى، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٥٣ - ٥٤.

2. Henri Lammans

٣. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ٥٠٣ - ٥٠٥. ومراد، يحيى، معجم أسماء المستشرقين، ص ٦١٠ - ٦١٣. ولمزيد من التفاصيل يُنظر: الكعبي، شهيد، صورة أصحاب الكساء، ١١٦ - ٢٠٠.

٤. النصر الله، جواد، والكعبي، شهيد، دراسات ورؤى استشراقية، ص ١٦٩ - ١٧٠.

٥. ابن ابراهيم، الطيب، الاستشراق الفرنسي وتعدّد مهامه خاصّة في الجزائر، ص ١٢٨.

٦. درويش، أحمد، الاستشراق الفرنسي، ص ٢٥.

٧. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ٣٣٤ - ٣٣٩. والطهطاوي: رفاعه رافع، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ١٦١/٢ - ١٧٠.

أصدره نابليون عام (١٨٠٦م). كما عمل على تخريج مترجمين للعمل بقلم الترجمة الفرنسية، إلى جانب تخريج باحثي المستقبل، وعندما احتلّ الفرنسيون الجزائر عام (١٨٣٠م) كان (ساسي) هو من ترجم الإعلان العام للجزائريين، وكان وزير الخارجية يستشير بانتظام في جميع الشؤون الدبلوماسية المتعلقة بالشرق، وأحياناً كان وزير الحربية يستشير كذلك، وكان اسمه يرتبط بإعادة بناء وتشكيل الدراسات الشرقية^١. وامتدت شهرته في كلّ أنحاء أوروبا حتى أنّه لما غزت ألمانيا وانجلترا فرنسا عام (١٨١٤م)، صدر الأمر للجيش بعدم التعرّض لممتلكاته^٢.

ثم جاء المستشرق والمفكر الفرنسي آرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢م)^٣ ليكمل ما بدأه (ساسي) إذ قام بتدعيم الخطاب الاستشراقي الرسمي وتنظيم الأفكار التي أتى بها، وإنشاء مؤسساته الفكرية والدينية، وتطويعه حتى يلائم فقه اللغة — وهو المجال الذي تخصص به — وتطويع فقه اللغة والاستشراق حتى يلائم الثقافة الفكرية لعصره. وهو ما مكّن الأبنية الاستشراقية من الاستمرار فكرياً، وزاد من إبرازها للعيان، فكان بمنزلة قوّة ديناميّة عملت على إشاعة ونشر منجزات (ساسي) وسابقه الثقافية بوصفها عملةً كان يتداولها، ويعيد تداولها من خلال فقه اللغة، الذي كان ثراؤه الكبير، وما يتمتع به من موقع ثقافيّ مرموق من وراء اكتساب الاستشراق أهمّ خصائصه التقنية^٤. كما عمل المبشر الفرنسي والمستشرق دي فوكو^٥، على تكريس حياته لدراسة الطوارق^٦ (وعاش

١. سعيد، إدوارد، الاستشراق، ص ٢١٣.

٢. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ٣٣٦.

3. Ernset Renan

٤. سعيد، إدوارد، الاستشراق، ص ٢٢١-٢٢٢.

٥. راهبٌ ومبشّرٌ كاثوليكي فرنسي، ولد عام (١٨٥٨م)، وهو صاحب كتاب (التعرّف على المغرب)، عمل ضابطاً ورحالةً مبشراً بين عرب الطوارق في الجزائر، وكان لا يحلم بتنصير المسلمين واليهود والمسيحيين المنحرفين فحسب، بل كان يريد تنصير القارة الأفريقية كلّها، فدفع حياته ثمناً لذلك، وكان قتله على أيدي عرب الطوارق عام (١٩١٦م) صدمةً كبرى للفرنسيين وللعالم الكنسي في أوروبا. يُنظر: كمال بن صحراوي، حركة التنصير في الجنوب الجزائري جهود شارل دو فوكو أنموذجاً (بحث منشور في مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية- الجزائر، المجلد ٣، العدد ١، س (٢٠٢٠م))، ص ٢٦٣-٢٦٩. وكراي، محمد، صورة المغرب في مرآة الرحلة الكولونيالية- شارل دو فوكو أنموذجاً (بحث منشور في مجلة مدارات تاريخية، المجلد الأول، لعام ١٤٤١هـ/٢٠١٩م)، ص ٧٠-٨٥.

٦. الطوارق (أو التوارك) شعبٌ من الرّحل، ذو أصول أمازيغيّة (بربرية)، يتخذ من الصحراء الأفريقية الكبرى الممتدة بين ليبيا والجزائر والنيجر ومالي وبوركينا فاسو، موطنًا له، ويُسمّى الطوارق أيضًا بـ(الشعب الأزرق)، نظرًا لتعودهم على ارتداء لباس تقليدي بلونٍ أزرقٍ نيلي. والطوارق مسلمون على مذهب مالك، مع خليطٍ في بعض الأماكن لبعض المعتقدات والطقوس الوثنية، ويعتمد أبنائه في أسلوب عيشهم على نمط حياة بدوية، كذلك التي يعيشها بدو العرب الرّحل. ينظر: كمال بن صحراوي، حركة التنصير في الجنوب الجزائري جهود شارل دو فوكو أنموذجاً (بحث منشور في مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية- الجزائر، المجلد ٣، العدد ١، لسنة = (٢٠٢٠م))، ص ٢٦٣-٢٦٩.

بينهم، وعمل على تحويلهم إلى المسيحية، ودعم السلطة الاستعمارية، وكان يقدم تقارير مفصلة عن المنطقة، مما يثبت أنه كان مبشراً جاسوساً على مستوى رفيع، وبعد أن اكتشف الطوارق ذلك أردوه قتيلاً^١.

لقد ابتدأ ماسينيون نشاطه الاستشراقي بعد مشاركته في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين في الجزائر عام ١٩٠٥م، والتقى بشخصيات من كبار المستشرقين^٢. وأشار أحد الباحثين إلى أن ماسينيون كاد أن يصبح خليفة لدي فوكو في صحراء الجزائر إلا أنه عدل عن ذلك بعد أن قرر الزواج، وترك حياة الرهبنة، وكان دي فوكو برسالته التي أرسلها إلى ماسينيون عام ١٩١٦م بارك له فيها جهوده في الانخراط في جبهة الحرب، وعدّ الحرب الاستعمارية حرباً مقدّسة، وبعدها بذل الروح العاشقة من أجل الله، وبارك له شرف الاستشهاد والخطر والمعاناة في سبيلها، والاتحاد بالقربان المقدّس، وكان يريد تعميد ماسينيون وتحويله إلى الكاثوليكية إلا أنه قُتل حينها^٣. وبالمقابل نذر ماسينيون حياته لفوكو (ناسك الصحراء)، وسعى إلى الكشف عن براءته من تهمة التجسس، وكان له دورٌ كبيرٌ في إلهام رينيه بازان في نشر^٤ سيرة (شارل دي فوكو)^٥. كما وقد عدّه ماسينيون (متأملاً كاثوليكياً)، عامل الآخرين على كونهم يعتنقون نسخة أخرى من دينه^٦.

١. الحاج، ساسي، نقد الخطاب الاستشراقي، ص ٨٧.

٢. الحاج، ساسي، نقد الخطاب الاستشراقي، ص ٢٠٥. وسليمان، سربي، موارد آراء المستشرق ماسينيون، ٤٦.

٣. بدر، علي، ماسينيون في بغداد، ص ٧٧-٧٨.

٤. رينيه بازان (René Bazin): كاتبٌ فرنسيٌّ بارزٌ وُلد في ٢٦ أيلول ١٨٥٣ في أنجيه، وتوفي في ٢٠ تموز ١٩٣٢ في باريس. شغل عدّة مناصب أكاديمية وأدبية؛ فقد كان أستاذاً جامعياً وعضواً في أكاديمية اللغة الفرنسية. كما تميّز بكتاباته في مجالات الرواية والشعر والقانون والصحافة، حيث تناول في أعماله موضوعات اجتماعية وأخلاقية عكست واقع عصره. يُعدّ بازان من الأدباء الذين أسهموا في تشكيل التيار الأدبي الفرنسي في القرنين التاسع عشر والعشرين، وما زالت أعماله تُدرس وتُثمن لدورها في إثراء الأدب الفرنسي.

Henri Bordeaux, René Bazin: Sa vie, son œuvre, Paris, 1941, p. 12-30.

5. Borrmans: Massignon. Jésus et Marie, Hallâj et Fâtîm, Islamochristiana, UNiversity Platform for research on Islam, vol. 36, 2010, p.2.

6. Nasr: Hossein, Traditional Islam in the Modern World, London, 198, p.258.

ثانيًا: لويس ماسينيون المستشرق الفرنسي حياته الولادة والنشأة:

ولد ماسينيون في (٢٥ / ٧ / ١٨٨٣ م) في ضاحية (نوجان سورمان)، على الضفة نهر المارن شرقي باريس^١ لأسرة فرنسية مرموقة، فوالدته هي السيّدة (ماري هوفن) إحدى النساء الكاثوليكيّات^٢ الورعات، تنتمي أصولها إلى الفلاندرز^٣ التي استقرّت في باريس في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وامتنت صناعة الغزل والنسيج^٤. أمّا أبوه فهو فنانٌ فرنسي (نحات ورسام) اتخذ له اسمًا فنيًا مستعارًا في عالم الفن، هو (بيير روش)^٥، تعود أصوله إلى أسرة فرنسية تمتن الفلاحة من مقاطعة الفيسكان، قدمت إلى باريس في بدايات القرن التاسع عشر، وتمتع والده وجده فرديناند ماسينيون الذي كان صيدلانيًا برخاء مادي، وفرّ لهم حياةً كريمة^٦.

أكمل ماسينيون دراسته الأولية في مدرسة (ليسيه مونتين)، وانتقل منها إلى ثانوية (لويس الكبير)، أو (ليسيه لوي لوجران) في باريس، وتعرف خلال هذه المرحلة على (هنري ماسبيرو)^٧،

١. بدوي، عبد الرحمن، ٥٢٩، العقيلي، نجيب، المستشرقون، ص ٢٨٧. ولمزيد من الدراسة والتحليل ينظر: جري، آيات عزيز، السيدة الزهراء (عليها السلام) في الفكر الاستشراقي الفرنسي (لويس ماسينيون نموذجًا)، ٣٤ - ٩٤.

٢. مذهب الكاثوليك: مذهب مسيحي، يقول بالطبيعتين والمشيّتين للسيد المسيح، اعتنقته كنيسة روما، واتخذت به قرارًا في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م، وهذا المذهب يقول بأنّ للمسيح طبيعتين ومشيتين، فالمسيح أقنوم إلهي بحت، ولكن له ذاتان وكيانان هما الإله والإنسان، ومن الواضح أنّ هذا القول متأثرٌ إلى حدٍّ ما باتجاه نسطور الذي يرى بأنّ المسيح إنسانٌ غمره اللاهوت بعد ولادته، ولكن الكاثوليك يختلفون عن نسطور في اعتقادهم أنّ مريم ولدت الاثنين جميعًا، فهي قد ولدت يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلهية، ومع الناس في الطبيعة الإنسانية، فهو طبيعتان ومشيتان وأقنوم واحد، وقد حضر زوج الملكة مجمع خلقيدونية؛ ولذلك يسمّى هذا المذهب بالمذهب المملكاني. يُنظر: شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، ص ١٦٦.

٣. الفلاندرز: منطقة تاريخية وجغرافية في شمال بلجيكا، ناطقة بالهولندية، وكانت مركزًا تجاريًا وثقافيًا مهمًا في العصور الوسطى، خاصةً في مدن بروج وغنت وأنتويرب. أدّت دورًا بارزًا في الثورة الهولندية ضدّ الحكم الإسباني في القرن السادس عشر:

Blockmans، W. P. & Prevenier، W. (1999). The Promised Lands: The Low Countries under Burgundian Rule، 1369-1530. University of Pennsylvania Press.

4. Gerard D. Khoury: Louis Massignou Levant Ecrits politiques (1907-1955)، p28.

٥. الكيلاني، فخري، بمناسبة مرور مائة عام، ص ١٩١.

6. Penicaud Manoe:l Louis Massignon Le Catholique Musulman، p26.

٧. هنري ماسبيرو (١٨٨٣-١٩٤٥)، مستشرق ومؤرخ فرنسي بارز، يُعدّ أحد أبرز رواد الدراسات الصينية والآسيوية في القرن العشرين. تخصص في تاريخ الصين القديم والدين الطاوي، وأسهم بأبحاثٍ رائدة في تحليل النصوص الدينية والفلسفية الصينية. شغل كرسي اللغة الصينية في (كوليج دو فرانس)، وترك إرثًا أكاديميًا غنيًا عبر مؤلفاته مثل (الطاوية والدين الصيني). واجه ماسبيرو نهايةً مأساويةً حين اعتقلته القوات النازية خلال الحرب العالمية الثانية، وتوفي في معسكر اعتقال بوخنفالده (طاهر، محمود زهير، تاريخ الدراسات الصينية في الغرب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠١٠، ص ٨٧).

الذي سيصبح فيما بعد عالمًا في الحضارة الصينية^١.

وفي الرابعة عشرة من عمره عمل ماسينيون وبالتعاون مع أصدقائه في الثانوية على إصدار مجلة صغيرة سمّوها (نحلة فرنسا)^٢، (وفي عام ١٩٠٠م) دخل ماسينيون جامعة باريس، ونال شهادة الآداب والفلسفة عن دراسته (مفردات الحب عند أونوريه أوروفا)، وفي عام ١٩٠١م حصل على شهادة في قسم الرياضيات، وهذا ما يفسر ولعه بالرياضيات طيلة حياته^٣.

سافر ماسينيون إلى المغرب والجزائر عام (١٩٠٤م)، وأعدّ بحثًا بعنوان (لوحات جغرافية من المغرب خلال السنوات الخمس عشرة الأولى في القرن السادس عشر وفق لليون الإفريقي)، وحصل فيه على دبلوم الدراسات العليا من جامعة السوربون في باريس (١٩٠٦م)، ودرس على يد المستشرق (ألفرد لو شاتليه)^٤ الحضارة الإسلامية من الناحية الاجتماعية^٥.

وكان لهذه الرحلة دورٌ كبيرٌ في تعلمه العربية، بعد أن تعرّضت قافلته لهجمات البدو؛ فكرّس نفسه لتعلّم اللغة العربية بعد عودته إلى باريس، وحصل على شهادة الدبلوم فيها من مدرسة اللغات الشرقية الحية عام (١٩٠٦م)^٦.

بدأ ماسينيون نشاطه الاستشراقي بعد مشاركته في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين

١. الكيلاني، فخري، بمناسبة مرور مائة عام على ولادة المستشرق العالم لويس ماسينيون، ١٩١. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ٥٣٠.

٢. الأصفر، عبد الرزاق، ماسينيون ما له وما عليه، ص ١٨٥.

٣. يُنظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ٥٣٠. وعامر، أديب، ماسينيون المستشرق والانسان، ٣٥١-٣٥٢.

٤. مستشرق فرنسي، ولد عام (١٨٥٥م)، واهتمّ بالأوضاع الاجتماعية والسياسية في العالم الإسلامي، وعلى وجه الخصوص الإسلام في منطقة إفريقيا والمغرب العربي، كُلف برئاسة البعثة العلمية في مراكش (١٩٠٥م) لإنشاء مجلة العالم الإسلامي، التي أشرف على إصدارها تلميذه لويس ماسينيون، وتولى كرسي علم الاجتماع الإسلامي في الكوليج دي فرانس، وخلفه من بعده أيضًا لويس ماسينيون، توفي لو شاتليه عام (١٩٢٩م)، ومن أهم مؤلفاته: الإسلام في القرن التاسع عشر، والإسلام في إفريقيا الغربية، والطرق الصوفية الإسلامية في الحجاز. يُنظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ٥١٧.

٥. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ٥٣٠. جورافسكي، أليسي، الإسلام والمسيحية، ص ١٠٢.

٦. بدر، علي، ماسينيون في بغداد، ص ٧٣.

في الجزائر عام (١٩٠٥م)، ولقائه هناك بكبار المستشرقين أمثال جولدسهير^١، وبلاشير، وشاتليه أستاذة في الاستشراق^٢، ومكنته معرفة اللغة العربية من التعرف على علوم الشرق والإسلام، كما ساعده على ذلك انتخابه في عام (١٩٠٦م) عضواً في المعهد الفرنسي لعلم الآثار في القاهرة، فتابع دروسه في الجامع الأزهر عام (١٩٠٩م)^٣.

لقد مثل عام (١٩٠٨م) تغييراً جذرياً في حياة ماسينيون بعد اطلاعه على سيرة الحلاج التاريخية، فكان ذلك بمنزلة لحظة صوفية غامضة أثرت على مجرى حياته في شتى النواحي، وعلى وجه الخصوص الجوانب الروحية، وتوجيه طبيعة دراساته فيما بعد^٤، وقد عمل ماسينيون بين عامي (١٩٠٧-١٩٠٩) في التنقيب عن الآثار في العراق، وكان من ضمن البعثة الفرنسية التي عملت في التنقيب عن آثار (قصر الأخضر)، أو (السدير)، وتمخض عنها إعداد مخطوطاً لبغداد في القرون الوسطى في مؤلفه الصادر عام (١٩١٠م)، بعنوان (بعثة إلى بلاد وادي الرافدين)^٥.

وفي نهاية عام (١٩٠٨م) حضر ماسينيون المؤتمر الدولي للاستشراق في (كوبنهاجن)، والتقى بـ(شارل دي فوكو)، وربطته به علاقة صداقة قوية استمرت حتى وفاة الأخير^٦، ومن ثم عاد ماسينيون عام (١٩٠٩م) إلى الجامع الأزهر، وبدأ بالإعداد لأطروحته عن (الحلاج)، ونال بها شهادة الدكتوراه من السوربون عام (١٩٢٢م)، وعيّنته الجامعة المصرية أستاذاً للتاريخ والفلسفة للمدة (١٩١٢-١٩١٣م)، قام خلالها بالعديد من الرحلات إلى الحجاز وبيروت وحلب ودمشق والأستانة^٧. وفي

١. مستشرق مجري ولد لأسرة يهودية عام (١٨٥٠م)، ودرس في بودابست، وبرلين، وجامعة ليبتسك، وحصل على الدكتوراه فيها عام (١٨٧٠م)، عن شارح يهودي للتوراة في العصور الوسطى، زار عدداً من البلدان والمناطق الغربية والشرقية، وعكف على التأليف وتدريس اللغات السامية، أهم مؤلفاته: الظاهرية مذهبهم وتاريخهم، ودراسات إسلامية بجزئين، محاضرات في الإسلام أو العقيدة والشرعية في الإسلام، واتجاهات تفسير القرآن أو مذاهب التفسير عند المسلمين. يُنظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ١٩٧-٢٠٣.

٢. الحاج، ساسي، نقد الخطاب الاستشراقي، ص ٢٠٥. وسليمان، سربي، موارد آراء المستشرق ماسينيون، ص ٤٦.

٣. الكيلاني، فخري، بمناسبة مرور مائة عام، ١٩٢؛ والربضي، ايلي، لويس ماسينيون، ص ١٥.

٤. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ٥٣٠-٥٣١.

٥. جورافسكي، أليسي، الإسلام والمسيحية، ص ١٠٥.

٦. عبدة، صابر، قراءة نقدية لآراء لويس ماسينيون، ص ٣٦٩.

٧. حمدان، نذير، مستشرقون سياسيون، ١٩٤. والكيلاني، فخري، بمناسبة مرور مائة عام، ١٩٢.

عام (١٩١٣م) تزوّج ماسينيون من ابنة عمه (مارسيل)^١. انتخب ماسينيون عام (١٩٢٤م) عضواً في الجمعية الآسيوية الملكية في لندن، وعضواً في أكاديمية العلوم السوفيتية، وأُرسل في بعثةٍ مرّةٍ أخرى إلى العراق وسوريا عام (١٩٢٨م)، وفي عام (١٩٣٣م)، عُيّن عضواً في مجمع (فؤاد الأول) للغة العربية في القاهرة، وشارك مع (ماري كحيل)^٢ في تأسيس جماعة (البديلة) عام (١٩٣٤م)^٣، كما عُيّن في عام (١٩٣٣م) مديراً في أكاديمية القاهرة العربية حتى عام (١٩٦٠م)، وأُنتخب رئيساً لمعهد الدراسات الإيرانية في عام (١٩٤٧م)، وأُسّس في السنة ذاتها الجمعية الفرنسية الإسلامية^٤. وفي كانون الثاني من عام (١٩٥٠م) نُصّب رسمياً بمنصب (كاهن كاثوليكي) في القاهرة، وانتقل بشكلٍ قانوني إلى المذهب الملكي اليوناني الكاثوليكي^٥. وفي عام (١٩٥٢م) زار الولايات المتحدة الأمريكية، وألقى ثلاثين محاضرةً فيها، كما قام عام (١٩٥٣م) بزيارة محجّ غاندي في مهرولي، وأُسّس جمعية فرنسا المغرب، وترأس رابطة أصدقاء غاندي، وشارك في مؤتمرات عدة بعد إحالته على التقاعد عام (١٩٥٤م).

كان آخرها المؤتمر الدولي العشرين للمستشرقين الذي انعقد في موسكو^٦. بقي ماسينيون في اهتمام دائم ومتواصلٍ عن الشرق حتى وفاته، ومن الجدير بالذكر أنّه توفيّ بالتحديد الدقيق في ليلة (٣١ تشرين الأول/١٩٦٢م) إثر نوبةٍ قلبيةٍ حادة^٧.

١. الربضي، ايلي، لويس ماسينيون، ١٩.

٢. ولدت عام (١٨٨٩م) لأبٍ سوريٍّ مسيحيٍّ ثريٍّ وأمٍّ ألمانية، وكان لوالدها أراضٍ زراعيةٌ كثيرةٌ في مصر، وعمل لصالح الخديوي، فنشأت هي مع بعض الراهبات في القاهرة وبيروت، وسافرت إلى أوروبا، وتعلّمت عدة لغات، واستقرّت في القاهرة، وشاركت بنشاطات نسويةٍ ودينيةٍ متعددة، وأصبحت تلميذةً لماسينيون في الحوار الإسلامي المسيحي، وتوفيت عام (١٩٧٩م). يُنظر: حسين، سوزان طه، معك، هامش رقم (٢)، ص ٢٨٦-٢٨٧.

٣. الأصفر، عبد الرزاق، ماسينيون ما له وما عليه، ص ١٨٦. للمزيد يُنظر: انجليه، فرانسو، الألم والبديلة والنذير، ضمن كتاب في قلب الشرق ٢٩-٤٥.

٤. الربضي، ايلي، لويس ماسينيون، ص ٢٢-٢٣.

5. Borrmans:Massignon، Jésus et Marie، Hallâj et Fâtîm، Islamochristiana، UNiversity Platform for research on Islam، vol. 36، 2010، P.3.

٦. الربضي، ايلي، لويس ماسينيون، ص ٢٤.

٧. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ٥٤٣.

ثالثاً: لويس ماسينيون ودوره السياسي في الشرق للفترة (١٩١٦-١٩١٧م).

تأثر ماسينيون منذ بدايات حياته بتيارين مغايرين في البيئة الفكرية التي ولد فيها؛ إذ كانت عائلته تمثل انعكاساً للمناخ الفكري والسياسي السائد في نهاية القرن التاسع عشر في أوروبا بشكل عام، وفرنسا بشكل خاص من خلال التوجّه المختلف لوالديه، فمن جانب والدته الكاثوليكية الورعة، التي كانت تؤدّي صلواتها بشكل دائم للمسيح،^١ ومن جانب والده (بيير روش)، الذي درس الطب وعلم التشريح، وتخصّص بالرسم والنحت، وتأثر بالتراث اليوناني والروماني القديم،^٢ وعمل تحت إشراف الفنان الفرنسي المشهور جان دالو ١٨٣٨-١٩٠٢^٣، فكان علمانياً مادياً في الغالب، وعضواً لرابطة حقوق الإنسان، قريب من الدوائر السياسية والفنانين،^٤ وقد أشار ماسينيون في إحدى رسائله للأب (أنستاس الكرملّي)،^٥ أنّ والده قام بنحت نصبٍ يمثل الفروسية والشخصية المحاربة لتخليد القديسة الفرنسية (جان دارك)،^٦ التي أثرت بشكل كبير في المتخيل الروحاني لماسينيون، وقد قال عن ذلك: لقد علمني والدي أن أحب جان دارك.^٧

١. الكيلاني، فخري، بمناسبة مرور مائة عام، ص ١٩١.

2. Christian: Jambet .Parfrancois Angeler، Francois L'yvoneet Souad Ayada، Louis Massignon Écrits Memorables، Paris، 2009، vole1 XXX-1 .

٣. جان دالو (Jules Dalou): نَحَات فرنسي بارز، يُعدّ أحد رموز الفن الواقعي في القرن التاسع عشر. للمزيد يُنظر:

<https://www.britannica.com/biography/Jules-Dalou>

4. Christian: Jambet .Parfrancois Angeler، Francois L'yvoneet Souad Ayada، Louis Massignon Écrits Memorables، Paris، 2009، vole1، p533 .

٥. أنستاس الكرملّي (١٨٦٦-١٩٤٧) ولد في بغداد من أبٍ لبناني الأصل وأمٍ عراقية، أنهى تعليمه الابتدائي في مدرسة الآباء الكاملة، ودخل بعدها ثانوية الانفاق الكاثوليكية، وهو كاهن كلداني عراقي، وعالم لغةٍ وأدبٍ عربيٍ بارز. يُنظر: السامرائي، إبراهيم، الأب أنستاس الكرملّي، ص ٩- ١٠ .

٦. جان دارك (جوان دارك) (حوالي ١٤١٢-١٤٣١) هي بطلةٌ قوميةٌ فرنسيةٌ وراهبةٌ مسيحية، لعبت دوراً محورياً في حرب المئة عام بين فرنسا وإنجلترا. ادّعت تلقي رسائل إلهية من القديسين لحثّها على دعم شارل السابع واستعادة الأراضي الفرنسية من السيطرة الإنجليزية. قادت الجيوش الفرنسية في سنّ السابعة عشرة، وحقّقت انتصارات بارزة، مثل تحرير أورليانز عام ١٤٢٩، ممّا أعاد الأمل للفرنسيين. أُسِرَت عام ١٤٣٠ من قبل البريطانيين وحُكِمَت بتهمة الهرطقة، وأُحرقت حيّة في روان عام ١٤٣١. أُعلنت براءتها لاحقاً عام ١٤٥٦، وطوّبت كقديسة عام ١٩٢٠. تُعدّ رمزاً للشجاعة والتضحية في التاريخ الفرنسي والعالمي. منى رجب، التاريخ امرأة، ص ٤١-٤٢ .

Castor، H، Joan of Arc: A history، Harper Collins، 2014.

7. Christian: Jambet .Parfrancois Angeler، Francois L'yvoneet Souad Ayada، Louis Massignon Écrits Memorables، Paris، 2009 vole1، pp.I، Xxxll .

وهو ما يمثل روح العصر آنذاك وانقسام فرنسا بعد الثورة الفرنسية وعصر الأنوار إلى تيارين أحدهما مناهض للإكليروس^١ (رجال الدين) والثاني يشعر بالحنين للنظام القديم والقيم المسيحية، وهو ما يبدو محل نقاش وجدال مستمر بين الزوجين^٢، لقد أثرت هذه العوامل في التكوين المعرفي لماسينيون، وفي بناء عقليته التاريخية والثقافية، ورؤيته السياسية، وذائقته الفنية، ونمو الروح الجمالية لديه، فعلى الرغم من كونه ممزقاً بين حماسة والدته الدينية وتوجهات والده العقلانية إلا أن هذه الاختلافات الأيدولوجية ساهمت في تنمية خبراته الثقافية وتراثه الروحي والسياسي^٣، وهو ما قاده في النهاية للبحث عن هذه الروح الجمالية في الشرق والعناية بتاريخ الإسلام وحضارته وثقافته، ولا سيما الجوانب الصوفية والرمزية فيه^٤.

يعود نشاط ماسينيون السياسي إلى عام ١٩٠٢ م، فقد أدى خدمته العسكرية في فوج المشاة التابع لإحدى الثكنات العسكرية المعروفة بشكنة هاتري^٥.

وعند زيارته للعراق عام ١٩٠٨ عمل ماسينيون في التنقيب عن الآثار، وتعرض إلى مصاعب جمّة، ومنها اتّهامه بالتجسس على الوالي العثماني وحسبه من قبلهم^٦.

فبذل (آل الألوسي) جهوداً كبيرة لإخراجه^٧. على إثر ذلك أُستدعي ماسينيون بعد تماثله للشفاء من قبل السلطات الإشرافية^٨؛ ويبدو أنّها لم تكن رحلة أثرية فحسب؛ بل كانت عملاً سياسياً مبطناً

١. الإكليروس (الكليروس): مصطلح يُطلق على رجال الدين في المسيحية، وخاصة في الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية، الذين يتولّون مهاماً دينية وروحية مثل إدارة الطقوس الدينية، والإرشاد الروحي، وإدارة شؤون الكنيسة. يتدرّج هؤلاء في مراتب كنسية تشمل الشماسية والكهنة والأساقفة، ويخضعون لنظام وتقاليد كنسية مُحدّدة. يرتبط دور الإكليروس بالحفاظ على التعاليم الدينية وتنظيم الحياة الكنسية: الموسوعة الكاثوليكية الحديثة، إعداد مجموعة من الباحثين.

2. Gerard D. Khoury. Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques، Editions Albin Michel، (1907-1955)، p30.

3. Penicaud: Louis Massignon Le Catholique Musulman، p32.

٤. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ٥٢٩.

5. Gerard D. Khoury. Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques، Editions Albin Michel، (1907-1955)، p32.

٦. موريون، جان، لويس ماسينيون، ص ١٨-١٩.

٧. بدر، علي، ماسينيون في بغداد، ص ٧٥.

8. Gerard D. Khoury. Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques، Editions Albin Michel، (1907-1955)، p36.

لا يخلو من غايات استعمارية للعودة إلى فرنسا، وقد أسهمت هذه الضيافة العربية في تغيير نظره للعرب^١. وهذا ما بيّنه في إحدى مقالاته عن (محمود شكري الألوسي)^٢، والقاضي (علي نعمان الألوسي)^٣، تحت عنوان (الأساتذة الذين وجّهوا حياتي).

ومما قاله فيها: «أيقنت أنني لن أتوصّل إلى شيء هنا وحدي؛ لاعتبار الأجنبي عدوًا عادة، فهو إمّا جاسوس، وإمّا تاجر، ولم يكن لي أملٌ للتقرّب من المسلمين والألفة معهم؛ لذلك ذهبت إليهم واستجرت بهم فأجاروني؛ لأنّ هناك شيئًا في حياة الناس وفي أخلاقهم اسمه الضيافة»^٤.

يرى جامعو سيرته أنّ عام ١٩٠٨م، هي لحظة ولادة للسياسة الماسينيونية بعد تعرفه على الحلاج^٥ في بغداد، فقد ذكر في مذكراته هذا الحدث قائلاً: «هذا الحدس في الأفق العقلاني والروحي يجذب العالم نحو الله، باسم الكنيسة التي يعمّ خيرها على الجميع وللأبد، كما يصطاد

١. الحاج، ساسي، نقد الخطاب الاستشراقي، ٢٠٦/١.

٢. محمود شكري الألوسي: (١٨٥٦-١٩٢٤م) عالمٌ عراقي بارز، وُلد في بغداد لعائلةٍ عُرِفَتْ باهتمامها بالعلم والدين؛ إذ كان أبوه العلامة (أبو الثناء شكري الألوسي) مفتي بغداد. تلقّى تعليمه في مدارس بغداد التقليدية، وبرع في علوم اللغة العربية، والتاريخ، والفقه، والحديث. اتّصف بمنهجٍ إصلاحٍ تأثّر بالتيار السلفي الداعي إلى العودة إلى الأصول الدينية، وانتقد الجمود الفكري في عصره، ممّا عرضه لمواجهاتٍ مع السلطات العثمانية. ألّف عددًا من الكتب المهمة، مثل: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، وتاريخ العراق، واشتهر بتحقيقاته العلمية الدقيقة للنصوص التراثية. يُعدّ أحد أبرز رواد النهضة الفكرية في العراق والعالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مطبعة القاهرة، ١٩٩١، ص ١٢٣. فتحي، نجدت صفوة، هذا اليوم في التاريخ، ص ٣٤-٤٠.

٣. علي علاء الدين بن نعمان الألوسي (١٨٦١-١٩٢٢م): فقيهٌ شافعي، وقاضي عراقي بارز، وُلد وتوفي في بغداد. ينتمي إلى أسرة الألوسي العريقة، التي اشتهرت بإنجاب العلماء والأدباء. تلقّى العلم على يد أبيه نعمان الألوسي وجده أبي الثناء الألوسي، وبرع في الفقه والحديث والتاريخ والأدب، واتّسم منهجه بالسلفية. تولّى منصب القضاء في عدة مناطق عراقية، ثم أصبح قاضي بغداد، وعُرف بنزاهته. كما درس في المدرسة المرجانية بجامع مرجان، وخرّج عددًا من العلماء البارزين للمزيد يُنظر: إبراهيم عبد الغني الدروبي، البغداديون أخبارهم ومجالسهم، ص ٣٥-٤٠.

4. Massignon: Les maîtres qui ont guidé ma vie، p.158.

٥. هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج، فيلسوف صوفي، يعد تارةً في كبار المتعبّدين والزهاد، وتارةً في زمرة الملحدّين. أصله من بيضاء فارس، وتنقّل بتستر بين واسط والبصرة وبغداد، وظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ، فاتّبع بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان، وتنقّل في البلدان داعيًا لما يراه، اتّهم بالقول بالحلول، وكثرة الوشاية حوله، فأمر المقتدر بالقبض عليه، وسُجن وعذب، ثم قُطعت أطرافه، وقُطع رأسه، وأحرقت جثته، وصارت رمادًا فألقيت في دجلة، سنة ٣٠٩ هـ/٩٢٢م، وادّعى أصحابه أنّه لم يقتل، وإنّما تشبّه لهم، ولعلّ سبب ذلك جسارته على الحكّام، وشدة نقده لهم، وله كتبٌ كثيرةٌ منها (طاسين الأزل والجوهر الأكبر والشجرة النورية)، و(الظل الممدود والماء المسكوب والحياة الباقية)، و(قرآن القرآن والفرقان)، و(السياسة والخلفاء والأمراء)، و(مدح النبي والمثل الأعلى)، و(الكبريت الأحمر)، ص ٣٠٧، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ١١٢/٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣١٣/١٤، الزركلي، الأعلام ٢ / ٢٦٠.

بطرس السمك بشباكه على سواحل طبرية»^١.

ونظراً لمعرفة ماسينيون بالعالم العربي والعمل السياسي والثقافي وبفضل عائلته عُنِي في الخدمة الصحفية لوزارة الخارجية، فأُوكلت إليه مهمة كتابة التقارير عن الصحافة العربية والمسلمين في شمال إفريقيا^٢.

وقبيل الحرب العالمية الأولى شهد ترسيخ ماسينيون نفسه في الأوساط الاستشرافية وإصداره لمجلة (العالم الإسلامي)، واهتمامه بالمؤتمرات الدولية، وبناء صداقات مع شخصيات مؤثرة ومتعددة، إلا أن اندلاع الحرب منحتة شغفاً بالعمل السياسي والدبلوماسي بعد نشاطه ك مترجم ومتخصص بالشرق.

من زاوية أخرى كان الشرق في تلك الفترة يعاني من التدهور والانحلال؛ فلقد دبّ الضعف في جسد الدولة العثمانية التي كانت تحكم معظم العالم الإسلامي آنذاك منذ نهاية القرن السابع عشر، واستمرّ حتى مطلع القرن العشرين، على الرغم من المحاولات الإصلاحية من قبل سلاطينها، إذ أثقلت كاهل الدولة عوامل عدة، منها ديونها الخارجية للدول الأوروبية، وحركات التمرد الداخلية، والصراع على السلطة، ونشاط جمعية الاتحاد والترقي التي أطاحت بحكم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني^٣ عام ١٩٠٨م؛ ممّا أدّى إلى تكالب الدول الاستعمارية على ممتلكاتها والاستيلاء عليها شيئاً فشيئاً^٤.

1. Christian: Jambet .Parfrancois Angeler، Francois L'yvoneet Souad Ayada، Louis Massignon Écrits Memorables، Paris، 2009، vole1، p534I.

2. Gerard D. Khoury.Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques، Editions Albin Michel، (1907-1955)، p50.

Christian: Jambet .Parfrancois Angeler، Francois L'yvoneet Souad Ayada، Louis Massignon Écrits Memorables، Paris، 2009، vole1p535.

٣. السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨م): آخر سلاطين الدولة العثمانية الفعليين، حكم من ١٨٧٦م حتى عزله عام ١٩٠٩م. اشتهر بسياسته الإسلامية (الجامعة الإسلامية) سعياً لتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة، ومواجهة التمدد الأوروبي. واجه تحديات جسيمة كالحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨م)، وفقدان دول البلقان، وارتبط اسمه بفترة (الاستبداد الحميدي) بعد تعليق الدستور والبرلمان. أدخل إصلاحات في التعليم والمواصلات (مثل سكة حديد الحجاز)، وحافظ على وحدة الدولة عبر سياسات مركزة، لكن معارضييه من (جمعية الاتحاد والترقي) اتهموه بالتشدد، وانتهى حكمه بانقلاب عُرف بـ(حادثة ٣١ مارس). تُوْفِيَ منفيًا في إسطنبول. للمزيد يُنظر: ارباجي، سيف الله، السلطان عبد الحميد الثاني مشاريعه الإصلاحية وانجازاته الحضارية، ص ١٧-٢٠.

٤. دهالسي، يمينه وأسماء، الثورة العربية الكبرى ١٩١٦م، ص ٨-٩.

وزاد الأمر سوءًا دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول المحور (ألمانيا والنمسا والمجر)، وعلى أثر ذلك أعلنت روسيا الحرب عليها في ٥ تشرين الثاني ١٩١٤م، متخذةً من ضرب العثمانيين موائتها ذريعةً لذلك^١، فسارعت روسيا بعد ذلك إلى الاتصال بحليفاتها بريطانيا وفرنسا للتفاوض على اقتسام أراضي الدولة العثمانية فيما بينها^٢، في حين تمكن الإنجليز عبر (مراسلات حسين — مكماهون)^٣ من جرّ العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) من خلال تشجيع القومية العربية لضرب العثمانيين من الداخل^٤؛ بعد أن أفادت من نفور العرب من الحكم العثماني نتيجةً لسياسة جماعة الاتحاد والترقي^٥ التي فتكت بالعرب، وقامت بإعلان الأحكام العرفية ضدّ الجمعيات العربية، وإعدام أصحابها^٦، إلى جانب السياسة المتعسفة للعثمانيين، وكان للضائقة الاقتصادية والخلافات الشخصية بين الشريف حسين، والدولة العثمانية دورٌ كبيرٌ في ذلك^٧.

تم التفاهم بين بريطانيا والعرب عبر سلسلةٍ من المراسلات المذكورة آنفًا بين الشريف حسين وبريطانيا، أوضح فيها الشريف مطالب العرب مقابل الانحياز للحلفاء خلال الحرب، ويأتي على رأسها إقامة دولةٍ قوميةٍ عربية^٨، ونصّ هذا الاتفاق على أن تضمن بريطانيا للعرب اليد العليا على الجزيرة العربية بأكملها، وبعض التحفظ على موضوعين، وهما:

١. الجمل، سيار، تكوين العرب الحديث، ص ٥٢٢.
٢. محافظة، علي، انعكاسات اتفاقية سايكس بيكو، ص ١-٢.
٣. انطونيوس، جورج، يقظة العرب، ص ٢٥١-٢٧٥؛ سعيد، أمين، الثورة العربية الكبرى، ص ١٢٦-١٤٥.
٤. الصلابي، علي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص ٤٦٦.
٥. جماعة الاتحاد: هي تنظيم سياسي سري ظهر في الدولة العثمانية، وتأسس في أواخر القرن التاسع عشر، ثم أصبح قوةً مؤثرةً بعد ثورة عام ١٩٠٨ التي أعادت العمل بالدستور، وقلّصت سلطة السلطان. قاد الحزب سياسات مركزيةً متشددةً، وعزل الأقليات العرقية، ممّا زاد التوترات الداخلية. خلال الحرب العالمية الأولى، تحالف مع ألمانيا، وارتبطت فترة حكمه بأحداث مأساوية مثل الإبادة الأرمنية. انتهى دوره بسقوط الدولة العثمانية عام ١٩١٨. للمزيد يُنظر: سنان صادق جواد السعدي، موقف جمعية الاتحاد والترقي من الحركة الصهيونية (١٨٨٩-١٩١٤)، ص ٧٨-١٠٠.
٦. الجمل، سيار، تكوين العرب الحديث، ص ٥٢٢-٥٢٣.
٧. دهالسي، يمينه وأسماء، الثورة العربية الكبرى ١٩١٦م، ص ٣٥-٣٦.
٨. انطونيوس، جورج، يقظة العرب، ص ٢٥١-٢٧٥.

فيما يخصّ الساحل السوري، وقضية فلسطين، ولم يجرؤ الشريف على الإصرار عليهما، وتكتمت بريطانيا حول نواياها اتّجاههما، في التوقيت نفسه دخلت حيز التنفيذ اتفاقيات سايكس-بيكو بين الحكومة البريطانية والفرنسية حول تقسيم مناطق النفوذ الإنجلو فرنسي في الشرق^١.

وفي خضم هذه الأحداث المتصاعدة أُنْدب لويس ماسينيون الذي كان برتبة ملازم ثانٍ إلى البعثة الفرنسية البريطانية في اتفاقيات سايكس-بيكو، بفضل سمعته السياسية كونه خبيراً في الشؤون الإسلامية والعالم العربي، وموضع ثقة من قبل الحكومة الفرنسية، ليكون مستشاراً لجورج بيكو^٢، وجزءاً من المهمة المسؤولة عن تنفيذ الاتفاقيات بشأن اقتسام أملاك (الرجل المريض) أي الدولة العثمانية.

لذلك تعدّ المغامرة السياسية الأولى والفريدة من نوعها في حياة لويس ماسينيون^٣، ذكر ماسينيون في أحد تقاريره الأولية والمُعَدّة للحكومة الفرنسية طبيعة الأوضاع الراهنة، قائلاً:

«لم تكن القومية العربية والجمعيات السرية قادرةً على خلق إطارٍ سياسي لدولة، وعندما أُلقت الحرب العالمية وحماقات القادة لحزب الاتحاد والترقي عام ١٩١٤م، بالحكومة العثمانية في أحضان المانيا، كانت بريطانيا تملك مسبقاً كل ما يتعلّق بملفات ووثائق وأوراق عنها، ولأجل ذلك كانت بحاجة إلى تكوين شبه دولة في الشرق، ووجدت في الحجاز الذي كان مركزاً للثقل الديني، ولسلالة الشريف حسين وسيلةً لذلك»^٤.

وهو على ما يبدو أنّ ماسينيون كان شخصيةً مرنةً تحظى بقبولٍ واسعٍ من شخصيات عدّة ذات أسماء ومراكز مهمّة على مختلف الأصعدة، وحتى من الطرف الآخر في مسرح الأحداث السياسية

1. Christian: Jambet .Parfrancois Angeler، Franois L'yvoneet Souad Ayada، Louis Massignon Écrits Memorables، Paris، 2009، vole1، p549.

2. Gerard D. Khoury.Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques، Editions Albin Michel، (1907-1955)، p70.

3. Destreman and Moncelon: Louis massignon، Librairie Plon، Paris، 1994، p133.

4. Christian: Jambet .Parfrancois Angeler، Franois L'yvoneet Souad Ayada، Louis Massignon Écrits Memorables، Paris، 2009، vole1، p545.

أمثال السير مارك سايكس^١ الذي عدّه الصديق الحقيقي^٢ في نصّ نشره بإحدى الصحف بمناسبة وفاته عام ١٩١٩م، قائلاً: «هذا الكاثوليكي المحبّ للفرانكوفونية^٣ - الناطقين باللغة الفرنسية - بينما كان معظم زملائه مناهضين لفرنسا بشدة، فهو إنسان صاحب ذكرى مثالية كونه كان من القلائل المهتمين بحقوق الشعوب الصغيرة، والذين كانوا يحترمون الوعود المعطاة للعرب»^٤.

ومن الجدير بالذكر أنّ ماسينيون الذي اختير كمحاور قيم ومناسب؛ لهذا نال ترحيب الحكومة البريطانية متمثلةً بالسير مارك سايكس وبتوصية له من رونالد ستورز^٥ أحد أكثر الضباط الإنجليز بقوله: «إنّ ماسينيون شخصٌ كفء ومتعاونٌ على الرغم من كونه في الخامسة والعشرين من عمره»^٦.

١. مارك سايكس: دبلوماسي وسياسي بريطاني ولد في ١٨٧٩، اشتهر بمشاركته في صياغة اتفاقية (سايكس-بيكو) السرية عام ١٩١٦ مع الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج-بيكو، التي قسّمت مناطق النفوذ في المشرق العربي بين بريطانيا وفرنسا بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية. لعب دوراً محورياً في تشكيل الخريطة السياسية للشرق الأوسط الحديث، ممّا أثر على حدود دول مثل سوريا ولبنان والعراق. إلى جانب عمله الدبلوماسي، كان سايكس كاتباً ومستشرقاً، وشارك في مفاوضات مع القيادات العربية خلال الحرب العالمية الأولى. توفي في باريس عام ١٩١٩ بسبب الإنفلونزا الإسبانية للمزيد ينظر:

Borden، Michael، Middle East Restore: Sir Mark Sykes، imperialism and Sykes، 2018، p، 73.

2. Gerard D. Khoury، Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques، Editions Albin Michel، (1907-1955)، p59.

٣. الفرانكوفونية: منظمة دولية تضم ٨٨ دولة وحكومة مرتبطة باللغة الفرنسية، تأسست عام ١٩٧٠ لتعزيز اللغة والثقافة الفرنسية والتعاون السياسي والاقتصادي. تهدف إلى دعم التنوع الثقافي، والسلام، والديمقراطية، والتنمية المستدامة عبر برامج تعليمية واقتصادية. تشمل أعضاء بارزين مثل فرنسا، وكندا، والمغرب، ولبنان، وتنظم فعاليات كالألعاب الفرانكوفونية، واليوم العالمي للفرانكوفونية (٢٠ آذار). تواجه تحديات كالمنافسة مع الإنجليزية وانتقادات حول الهيمنة الثقافية الفرنسية، لكنها تسعى لتعزيز التعاون المتوازن بين أعضائها كمنصة دولية متعدّدة الأبعاد. (وليد كاصد الزيدي، الفرانكوفونية في المنطقة العربية: الواقع والآفاق المستقبلية، ص ١١٩ - ١٢٠).

4. Christian and Moncelon: Louis massignon، Librairie Plon، Paris، 1994، p138.

٥. السير رونالد ستورز (١٨٨١-١٩٥٥): ضابط ودبلوماسي بريطاني بارز، شغل منصب الحاكم العسكري للقدس بعد احتلالها عام ١٩١٧، وأسهم في دعم الثورة العربية مع لورنس العرب وترتيبات اتفاقية سايكس-بيكو. تولّى لاحقاً حكم قبرص، وألّف مذكرات تُوثّق تجاربه. يُعدّ شخصية جدلية بين من يرونه رمزاً للاستعمار ومن يذكرون محاولاته لفهم الثقافة المحلية ضمن مصالح بريطانيا. للمزيد يُنظر: المراجع

Ronald Storrs. Lawrence of Arabia، Zionism and Palestine، 1940، p.76.

6. Christian and Moncelon: Louis massignon، Librairie Plon، Paris، 1994، p145.

وقبيل الثورة العربية شارك ماسينيون في تشكيل الفيلق العربي، على الرغم من دور فرنسا المتواضع في الشرق أرادت الأخيرة أن تقوم بعملٍ نشطٍ على مستوى الأحداث حفاظاً على مصالحها، أُنيط بماسينيون دورٌ سياسيٌ كمستشارٍ لإنشاء جيشٍ عربيٍ للثورة؛ إذ كان مؤهلاً بشكلٍ خاصٍّ من خلال معرفته باللغة العربية، ويساعده روبرت كولوندوز أحد المسؤولين الفرنسيين الذي كان مسؤولاً عن ضمان التعليم في مهمة الدعاية السرية، ومن الجهة الأخرى كان لورنس مستشاراً أيضاً في هذه المهمة؛ وذلك لإيهام العرب بالتعاون مع الحلفاء، ورغبة الأخيرة في تحريرهم من نير الحكم العثماني^١.

قدّم ماسينيون بعد توليه هذا المنصب تقريراً للحلفاء عن الفيلق العربي في نهاية سبتمبر ١٩١٦م، نصّ على: «أرسلني سايكس وبيكو في مهمةٍ إلى قناة السويس، مقابل الإسماعيلية على الضفة الشرقية في المعسكر، حيث شكّل نوري السعيد الفيلق العربي، لقد كتبت عن هؤلاء المتطوعين دراسة سوسيلوجية، حيث كان هناك مسيحيون من الموصل وبعض اليهود الذين سرعان ما هجروا الفيلق....». ويعدّ بعضهم هذا التقرير السياسي الأول للويس ماسينيون- وهو تحقيق سوسيلوجي- تمت كتابته بعد الاجتماعات في نورث بروك بين العرب والحلفاء^٢. وذكر فيه «... أن صورة فرنسا مع الفيلق تبدو ممتازة هناك؛ لأنّ القوّات أصبحت تدرك تماماً دور فرنسا في تحرير الشعوب العربية... ومن المؤكّد أنّ سمعة فرنسا الأخلاقية والفكرية تحظى بقبولٍ وإعجابٍ واضحين من قبل الضباط والجنود العرب، أيّاً كان البلد العربي الممتين إليه...»^٣.

وأشار ماسينيون إلى أنّه حضر عدّة لقاءاتٍ سريةٍ بين سايكس وبيكو وفیصل والشريف حسين على هامش مراسلات حسين-مكماهون، تعرف خلالها على فیصل عن كثب، ووصفه بكونه شاباً متحمساً زعيماً للثوريين على خلاف هدوء والده، أدرك شيئاً فشيئاً أنّ الحركة القومية العربية يجب أن تشقّ طريقها على الرغم من المعارضين لها وأشار أيضاً إلى أنّه كان مسؤولاً عن إعداد محاضر هذه اللقاءات الخمسة التي عُقدت حينها، اثنتان مع الأمير فیصل، وثلاثة مع الشريف الحسين^٤.

في نهاية سبتمبر ١٩١٦م نقل ماسينيون مبلغ قدره (٩٥٠) ألف فرنك من العملات الذهبية إلى

1. Christian and Moncelon: Louis massignon, Librairie Plon, Paris, 1994, p141.

2. Gerard D. Khoury. Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques, Editions Albin Michel, (1907-1955), p61.

3. Christian and Moncelon: Louis massignon, Librairie Plon, Paris, 1994, p143.

4. Manoeh Penicaud: Louis Massignon le catholique musulman, p163.

الشريف حسين، ووصل ماسينيون بهذا الدعم إلى جدة في ٢٧ سبتمبر/أيلول ١٩١٦م وحظي هذا الوفد بترحيب بعض الشيء من قبل السلطات البريطانية^١.

ذكر بعدها «... ثم تلقيت أمراً بالذهاب إلى كلاب امام غزة إذ لم يكن الأمر اعتيادياً، أراد رؤسائي أن يمنحوني دوراً كبيراً في (إفساد البدو السوريين)، ولا أنكر أنني شعرت باللعنة لخيانة هؤلاء بعد أن عرفت مسبقاً ضيافتهم المقدسة...»^٢.

شارك ماسينيون مع لورنس في الثورة العربية من ناحية التخطيط والتجهيز والقتال، وكان مع لورنس قائداً لجيش الشمال الذي كان يترأسه الأمير فيصل، وكان موغراس المسؤول عن تعيين ماسينيون وبالتفاوض مع الحكومة البريطانية، بعد أن انتدب الانجليز لورنس^٣ لتولي قيادة الحركة العربية على الحدود السورية، مع ذلك أعرب موغراس عن شكوكه عن نجاح المهمة في إحدى النصوص للقيادة، قائلاً:

«... فمن ناحية شخصية لورنس المتشنجة حيال أيّ تعاون مع القوات الفرنسية، ومن جانب آخر انصياع القيادة الإنجليزية لرغبات قائد يعدّ لا غنى عنه، سيضعنا في موقفٍ حرج، فكما متعارف عن لورنس رفضه الدائم لأيّ ضابطٍ إنجليزي في غاراته، مدعيّاً أنّ وجود أوربي بجانبه من شأنه أن يعرضه للخطر» وردّاً على ذلك في ٨ أكتوبر خاطب جورج بيكو^٤، موغراس مرةً أخرى، قائلاً:

«... لا يمكن متابعة الخطة بيننا وبين السلطات البريطانية، إلّا من خلال العمل المنسق بسبب

1. Christian and Moncelon: Louis massignon، Librairie Plon، Paris، 1994، p142.

2. Christian: Jambet .Parfrançois Angeler، François L'yvoneet Souad Ayada، Louis Massignon Écrits Memorables، Paris، 2009، vole1، p564.

٣. مستشرق وسياسي بريطاني ولد عام (١٨٨٨م)، وتلقّى تعليمه في أكسفورد، يُنظر:

Belames، t The writings of muhammad hamidullah in French trends and novelties Islamicus، Islamic Economics Institute، King Hamdard Islamicus، 67، Vol.XL، No.4، Abdulaziz University، Jeddah، Saudi Arabia .، P 71.

٤. جورج بيكو (١٨٧٠-١٩٥١): دبلوماسي فرنسي شارك في توقيع اتفاقية سايكس-بيكو السرية عام ١٩١٩ الخاصة بتقسيم المشرق العربي بين فرنسا وبريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى. شغل منصب قنصل فرنسا في بيروت، وعمل على تعزيز النفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان، مستغلاً خبرته في الشؤون العربية لترسيم حدود المنطقة، التي شكّلت أساس الكيانات السياسية الحديثة. يُذكر إرثه بوصفه رمزاً للاستعمار، وأحد أسباب النزاعات الإقليمية المستمرة إلى الوقت الحاضر. للمزيد يُنظر:

Andrew، Christopher M، Cania Forstner، Alexander Sydney، The Peak of French Imperial Expansion، 1914-1924 . Stanford University Press، Londres، 1981، p . 114-120 .

المصالح الخاصة التي تحتفظ بها لنا الاتفاقيات الآسيوية في المناطق المتوخاة؛ ولذلك فإنني أعلق أهمية كبيرة على الملازم الثاني ماسينيون المؤهل بشكل خاص لهذا مهمة هامة، وسنطلب منه حالاً التواصل مع لورنس، أما بالنسبة للدرجة العسكرية سأمنح السيد ماسينيون الرتبة الملازمة لذلك، ومن خلال هذه المهمة يجب أن تمنحوا السيد ماسينيون الثقة اللازمة ليعطي للعرب انطباعاً جيداً عن الدور الذي ستؤديته فرنسا في العمليات التي سيجري تنفيذها»^١.

إلا أن لورنس رفض هذا التعيين المشترك، وطلب منهم تغيير ماسينيون، ويذكر الأخير: «ربما أراد لورنس تجنب الاضطرار إلى قتلي...»^٢، ومن الجدير بالذكر أن ماسينيون يرى لورنس جاسوساً بلا ضمير، ومستعداً لفعل أي شيء لتحقيق أهدافه، وليس لديه بما اصطلاح ماسينيون على تسميته (حياة روحية)، إضافة إلى كون لورنس يذكره بكراهيته لأزمته الأخلاقية التي سبق وأقنع عنها^٣.

وعملت السلطات الفرنسية فشل وضع ماسينيون ضابطاً على قدم من المساواة مع لورنس في الثورة العربية إلى معارضة اللنبي^٤ ذلك، وأن الأخير يعزو ذلك لأسباب عسكرية ودبلوماسية، صرح بيكو لاحقاً أنه تم ارتكاب خطأ كبير بالسماح للبريطانيين بالتصرف بمفردهم. قائلاً: «لقد رفضوا تعيين ماسينيون، ولا شك في أن ذلك يعود للورنس، حتى لو كان الأمر بناءً على رأي الجنرال اللنبي، واختاروا ضابطاً آخر أكثر مرونة مع مطالبهم من السيد ماسينيون؛ لكون الأمر ذا منحى سياسي، يتمثل بكون ماسينيون النائب المباشر لبيكو»^٥.

دخل ماسينيون مع قوات الحلفاء إلى القدس في ٩ كانون الأول مع موكب السيارات الذي يترأسه اللنبي، وبيكو، ولورنس، وماسينيون وكان الأخير مرتدياً الزي العسكري، وتبدو على ملامحه الصرامة، وشارك في المحاورات السياسية بين الطرفين حول وضع القدس، إلا أن اللنبي كان

1. Gerard D. Khoury. Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques, Editions Albin Michel, (1907-1955), p60.

2. Christian: Jambet. Parfrançois Angeler, François L'yvoneet Souad Ayada, Louis Massignon Ecrits Memorables, Paris, 2009, vole1, p565.

3. Penicaud Manoel: Louis Massignon Le Catholique Musulman, p 136.

٤. الجنرال إدموند اللنبي: قائد عسكري بريطاني ولد في عام ١٨٦١، للمزيد يُنظر:

Lawrence James Weidenfeld & Nicolson Imperial Warrior, the Life and Times of Field Marshal Viscount Allenby 1861 - 1936, 1993, p 49.

5. Christian and Moncelon: Louis massignon, Librairie Plon, Paris, 1994, p150-151.

متعصباً وجمع آراء ماسينيون^١.

وقد ذكر ماسينيون بعد ثلاثين عام أنّ لورنس كان هو المسؤول المباشر عن إيهام العرب والشريف حسين حول مصير المدينة المقدّسة، وأنّها ستعهد إليه، على الرغم من أنّه كان على علم بمفاوضات اللورد بلفور^٢ مع روتشيلد^٣ حول تطّعات اليهود في المنطقة^٤. وهو على ما يبدو أنّه كان يبرر موقفه وبذل فهو يقع في مغالطة نفسه؛ فمن ناحية يذكر أنّ الهدف من إرساله هو لبث التفرقة أو ما سمّاه بـ (إفساد البدو)، ومن ناحية أخرى يرمي بالتبعات كاملة على لورنس، ألم يكن ماسينيون على علم بهذه المخططات؟ فلماذا إذا لم يبلغ الشريف حسين؟! وإن لم يكن على علم - وهو أمرٌ مستبعدٌ - لماذا لم يترك العمل السياسي بعدما علم بفعل لورنس بعد أن سيطر عليه شعوره بخيانة العرب؟!

يذكر ماسينيون أنّ لورنس شعر بالتدنيس، وندم على ذلك بعد إعلان الأحكام العرفية أمام بر داوود من قبل النبي، أعفى الأخير مهمّة سايكس-بيكو من أيّ عملٍ دبلوماسي بالمدينة المقدّسة وهدّد النبي بيكو باعتقاله في حالة أيّ تدخلٍ^٥.

من خلال ما سبق يُلحظ أنّ ماسينيون كان يعرف بالازدواجية لجمعه بين دور الأكاديمي ورجل العلم، وبين السياسي ورجل الدين، ومن خلال وضعه سعة اطلاعه وثقافته في خدمة المصالح الاستعماري؛ وهذا ما يبدو جلياً في الأدوار التي اضطلع لها في بداياته في المعترك السياسي قبل

1. Ibid، p152-153.

٢. لورد آرثر جيمس بلفور (١٨٤٨-١٩٣٠): سياسي بريطاني وُلد عام ١٨٤٨، تولّى رئاسة وزراء بريطانيا (١٩٠٢-١٩٠٥)، للمزيد يُنظر:

<https://www.britannica.com/biography/Arthur-James-Balfour-1st-earl-of-Balfour>.

٣. روتشيلد: عائلةٌ يهوديةٌ ألمانيةٌ أوروبيةٌ شهيرةٌ أسّست إمبراطوريةً ماليةً وسياسيةً. تأسست على يد ماير أمشيل روتشيلد (١٧٤٤-١٨١٢) في ألمانيا، وبرزت كأحد أهمّ العائلات المصرفية في القرن ١٨. أنشأ ماير بنكاً في فرانكفورت عام ١٧٦٠، ثم توسّع أبناؤه الخمسة بفروعه في لندن (١٨٠٤)، وباريس، وفيينا، ونابولي. لعبت العائلة دوراً في تمويل حكومات أوروبا، ودعمت مشاريع كقناة السويس (١٨٧٥) من أبرز شخصياتها: ليونيل دي روتشيلد (١٨٠٨-١٨٧٩)، أول يهودي يدخل البرلمان البريطاني (١٨٥٨). للمزيد يُنظر: محمد عاشور، رانيا مصطفى، د. مدحت عبد الحارث، العائلات الرأسمالية اليهودية ودورها في السياسة العالمية، ص ٣٨-٤٢.

4. Christian and Moncelon: Louis massignon، Librairie Plon، Paris، 1994، p 153.

5. Christian: Jambet .Parfrancois Angeler، Franois L'yvoneet Souad Ayada، Louis Massignon Écrits Memorables، Paris، 2009، vole1، p565-566.

أن يضع منهاجاً آخر لتحقيق تطلّعاته في فترات لاحقة وأواخر حياته^١، وهو أمرٌ بطبيعة الحال يعود لأسبابٍ بنيويةٍ وسيكولوجيةٍ رافقته خلال حياته بين الوازع الديني المتذبذب والانتماء الروحي لصلب العقيدة المسيحية، والشعور الوطني الذي شاطر اهتمامه الديني وكيف لا وهو ابن المدرسة الاستشراقية الفرنسية المعروفة بأيّدولوجيتها الدينية المتزمتة؛ فهي حصن الكاثوليكية والبنت الكبرى للكنيسة^٢.

ومن زاويةٍ أخرى تعلّق به شخصيات عادت إلى أحضان المعتقد المسيحي-الكاثوليكي- بعد معاناة روحيةٍ غير مألوفة، واتّخذت من التبشير رسالةً لها أمثال هويسمانز وفوكو وآخرين، إلّا أن التناقض الذي انطوت عليه شخصية ماسينيون بين وجوده في الركب الاستعماري وبين مساندته العرب في بعض القضايا لاحقاً، والوقوف إلى جانبهم في بعض الأحيان، وإظهار الودّ والاحترام لهم؛ جعل بعضهم يتجاهل دوره السياسي، بل يحرف مسار دراساته عن عمد، أو يمرّ عليه مروراً هامشياً، حتى رفض بعضهم عدّه جاسوساً، وإن كانت فرضية تعاونه مع المخابرات تطفو على الساحة على حدّ تعبيرهم^٣.

وفي حقيقة الحال إنّ ماسينيون كان يمثّل الوجه الآخر للاستعمار، لكن تحت مسمّيات برّاقة ولاعبة، وهي في باطنها تحمل الطابع التبشيري الاستعماري، وعلى الرغم من إنكار ماسينيون لخطابه التبشيري، يرى بعض المؤرّخين بأنّ له دوراً في هذا المجال، فقد أثر عنه القول بحسب كتاباتهم: «إنّ الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يلونوا بالمدينة المسيحية»^٤.

هذا فضلاً عن تمنياته بتوحيد الجهود لجعل المسلمين الذين يؤمنون بنبوة عيسى ابن مريم، للاعتقاد بكونه ابن الله، وبالتالي هدايتهم إلى النصرانية^٥.

كما ذكر عنه أنّه قال في أحد اجتماعات القمّة للمبشرين المسيحيين: «لقد خربنا كل ما لدى المسلمين، لقد قضينا على عقيدتهم، وأخلاقهم وارتباطهم بدينهم، ومشاعرهم الإنسانية، لقد صهرنا قيمهم الوطنية والمعنوية في بوتقة الحضارة الغربية، وجعلناهم يشبهوننا، وأبعدناهم عن

1. Christian and Moncelon: Louis massignon، Librairie Plon، Paris، 1994، p 136.

٢. النصر الله، جواد، الكعبي، كريم، الاستشراق الفرنسي والبعثات اليسوعية، ص ٩٥.

3. Gerard D. Khoury. Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques، Editions Albin Michel، (1907-1955)، p53 .

٤. فروخ، عمر والخالدي، مصطفى، التبشير والاستعمار، ص ٨٨.

٥. المصدر نفسه، ص ٨١.

الإسلام، لقد نجحنا في جعل تعلم الإسلام وتعلم القرآن وإقامة الصلاة تبدو وكأنها جرائم ورجعية، لقد أصبح معظمهم لا يؤمنون بشيء، إن عقيدة أهل السنة والجماعة هي عدونا الأول، وقد جعلنا هذه العقيدة ضمن العقائد المنحرفة، وقد قمنا في السنوات الأخيرة بدفع بعض دارسي الشريعة المتظاهرين بالإسلام إلى مناقشة دينهم وعقائدهم وعباداتهم التي مضى عليها أربعة عشر قرناً، ودفعنا بها إلى هاوية سحيقة، ومن الآن فصاعداً سيصبح عملكم المبشرون أكثر يسراً وسهولة. قوموا بتنصير المسلمين، سواء بمنحهم رواتب، أو بإعطائهم تأشيرات سفر، أو بتوفير فرص عمل لهم في الخارج، أو حتى باستخدام الفحشاء»^١.

وقد عدّ بعض ماسينيون الذي كان عضواً في المجمع اللغوي المصري والمجمع العلمي بدمشق بوصفه «الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر»^٢؛ لذا نجده كرّس نفسه للجانب السياسي في هذه الفترة بالذات، وأصبح داعية متحمساً لشعوب الشرق الأوسط مدفوعاً بدافع ديني حيث تصوّر الصراع القائم صراعاً دينياً، وحرّاً صليبية، وأنّ من الواجب عليه خدمة الكنيسة، ونجد ذلك جلياً في إحدى رسائله عام ١٩١٧م، إلى محمود شكري الألوسي التي جاء فيها «فليسمح الله يا أبتى العزيز وصديقي، لأنّه أجاز لنا أن نشارك شخصياً بالآلام الزمن الحاضر - وأن يمنحنا طرفاً من صليبه المبارك... صلواتي الموقرة لك أبتى العزيز، وفي المشاركة المقدسة للكنيسة المناضلة»^٣.

وبذلك فإنّ ماسينيون كغيره من المستشرقين والسياسيين بصورة عامة لم يتمكن من التخلص من الإرث الفكري، والشخصي، و الأيديولوجي الذي كان يثقل كاهله، بل عمل على إعادة تدويره وإنتاجه بنسق متكامل طيلة حياته^٤. وعلى ما يبدو أنّ ماسينيون لم يتخلّص من الأزمة الأخلاقية، والشعور بالذنب، والألم بقي يلاحقه طيلة حياته، وهذا ما يفسره قوله: «كانت مشكلتي بالنسبة لي أنني أستخدم لغة خطاياي، وأنا في مسيرتي بحثاً عما يكفرها، عن شيء لم أكن أعرفه، وجدته في العذاب المشترك، ومراعاة حسن الضيافة»^٥. موضعاً منهجه في تحقيق هذا التكفير الروحي

١. الرضي، ايلي، لويس ماسينيون، ص ٩٨ - ٩٩.

٢. الميداني، عبد الرحمن، أجنحة المكر الثلاث، ص ١٦٠.

٣. بدر، علي، ماسينيون في بغداد، ص ١٠٢.

٤. سعيد، إدوارد، الأستشراق، ص ٤١٦ - ٤١٧.

5. Sherwood, Yvonne, and Kevin Hart, eds. Derrida and Religion: Other Testaments. New York: Routledge, Taylor & Francis Group, 2005, p. 84.

عبر قوله: «جعلت من نفسي عبداً للجميع؛ لأحقّق ذلك بشكل أكبر. بالنسبة لليهود صيرت نفسي يهودياً من أجل أن أكسبهم، وبالنسبة للسياسة أصبحت سياسياً لمن يرغبون في القانون، ولمن هم خارج الناموس صرت خارجه لأربحهم، وكنتُ ضعيفاً لمن كان ضعيفاً، وقوياً لمن كان قوياً، ولكي أكسب ود المسلمين أصبحت مسلماً مثلهم، وليشعر المسلمون بآلام المسيح وموته وقيامته، ويرغبوا صراحةً بتضحيتي، ونار الروح عبر إبقاء الجسد الخارجي للإسلام على حالة، وتمني التحول من داخل الإسلام، باعتبار الطقوس البديلة، والحجّ المشترك بين المسيحية والإسلام، هي الدعوات الأصيلة إلى الاتحاد الصوفي بين أصدقاء الله»^١.

الخاتمة

يتبين ممّا سبق أنّ الاستعمار الفرنسي كرّس رجالات الاستشراق لخدمة المصالح الاستعمارية لبلادهم، عبر الإفادة من علومهم، وانكبابهم على دراسة الشرق، ووضع خرائط عن مناطقه ودراسته من شتى النواحي الاجتماعية، والسيكولوجية، والعلمية، لتحقيق غاياتهم الإمبريالية. من جانب آخر وجد المستشرقون ومنهم ماسينيون ذلك واجباً وطنياً يحتمّ عليهم العمل لصالحه، بالإضافة إلى العامل الأيدلوجي الذي كان الدافع الخفي وراء ذلك سواء بنحوٍ واعٍ أم غير واعٍ، وهذا ما نجده في تطويع ماسينيون لمعرفته باللغة العربية، ولقربه من العرب الذي لا يخلو من كونه لغاياتٍ سياسية في المشاركة بهكذا عمل سياسي بالغ الأهمية، ألا وهو تقسيم الشرق وفق مخططات الدول الأوروبية عبر اتفاقية سايك بيكو.

1. Krokus:Christian S . The Theology of Louis Massignon: Islam, Christ, and the Church, Catholic University of America Press, Washington, D.C. 2017, Pp .206, 213.

المصادر والمراجع

١. ابن ابراهيم، الطيب قراءة مختصرة لتاريخ الاستشراق الفرنسي وتعدّد مهامه خاصّة في الجزائر، ط ١، دار المنابع للطباعة والنشر ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
٢. الأصغر، عبدالرزاق، ماسينيون ما له وما عليه (بحث منشور) في مجلة التراث العربي، المجلد ٢١، العدد ٨٣-٨٤ لعام ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م.
٣. انجليه، فرانسو، الألم والبديلة والندير: المصادر الأدبية لفكر لويس ماسينيون: بحث منشور ضمن كتاب في قلب الشرق، ط ١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة — مصر ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.
٤. انطونيوس، جورج، يقظة العرب، ترجمة: الركابي، علي حيدر، دمشق — سوريا، الناشر: مطبعة الترقّي ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م.
٥. بدر، علي، ماسينيون في بغداد: رسائل المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون إلى الأب أنستاس ماري الكرملّي ١٩٠٨-١٩١٩. ط ١، دار الجمل، كولونيا - ألمانيا ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
٦. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ط ٣، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
٧. بيطار، زينات، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، ط ١، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.
٨. الجابري، صلاح، تفكيك الاستشراق، ط ١، المركز العالمي لدراسات الكتاب الأخضر، بنغازي- ليبيا ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
٩. جري، آيات عزيز، السيدة الزهراء (عليها السلام) في الفكر الاستشراقي الفرنسي (لويس ماسينيون أنموذجاً) رسالة ماجستير غير منشورة، كليّة التربية جامعة ميسان، ٢٠٢٣.
١٠. الجمل، سيار، تكوين العرب الحديث، ط ١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.
١١. الجندي، أنور، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، ط ١، دار الانصار للطباعة والنشر، القاهرة - مصر د. ت.

١٢. جورافسكي، أليسي، الإسلام والمسيحية، ترجمة: محمد خلف الجراد، مراجعة: محمود حمدي زقزوق، ط ١، عالم المعرفة، الكويت ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م.
١٣. جيا، حاتم كريم، الإمام علي عليه السلام في كتابات بعض المستشرقين الفرنسيين، مجلة دراسات استشراقية، العدد الثاني، ٢٠١٤ م.
١٤. الحاج، ساسي سالم، نقد الخطاب الاستشراقي - الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ط ١، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
١٥. الحسني، محمد الهادي، الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال نصوص معاصرة، ط ١، جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع، رقم ٨٩ حي باحة (الليدو) - المحمدية الجزائر، س ٢٠٠٦ م.
١٦. حسين، سوزان طه، معك، ترجمة: بدر الدين عروكي، ط ١، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة - مصر ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٥ م.
١٧. الحصين، سلطان بن عمر، الاستشراق الفرنسي والسيهر النبوية دراسة نقدية لكتاب تاريخ العرب العام، ط ١، مكتبة الملك فهد الوطني، الرياض - السعودية ١٤٢٦ هـ / ٢٠١٥ م.
١٨. حمدان، نذير، مستشرقون سياسيون — جامعون — مجمعون، ط ١، مكتبة الصديق للنشر والتوزيع، الطائف - السعودية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
١٩. الخالدي، مصطفى وعمر فروخ، التبشير والاستعمار، ط ١، المكتبة العصرية: بيروت - لبنان ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م.
٢٠. الخربوطلي، علي حسني، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة - مصر ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
٢١. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)، تاريخ بغداد. دراسة وتحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

٢٢. الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت — لبنان ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م.
٢٣. دانتيج، ب، م، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة وتعليق: معروف خزنه دار، دار الرشيد للنشر، موسكو، ١٩٦٥ م.
٢٤. درويش، أحمد، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة - مصر، (د. ط)، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
٢٥. دهاlesi، يمينه وأسماء، الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ م، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في التاريخ تخصص تاريخ حديث ومعاصر، قسم علوم إنسانية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية أدرار، س ٢٠١٤ - ٢٠١٥ م.
٢٦. الرضي، ايلي، لويس ماسينيون، ط ١، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء- المغرب ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٩ م.
٢٧. السامرائي، إبراهيم، الأب أنستاس الكرمللي وارؤه اللغوية، مطبعة المعرفة، ١٩٦٩ م.
٢٨. سعيد، إدوارد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة، محمد عناني، ط ٢، دار رؤية، القاهرة - مصر، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
٢٩. السلمي، أبو عبد الرحمن ت ٤١٢، طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شريية، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٩ م.
٣٠. سليمان، سربي، موارد آراء المستشرق لويس ماسينيون من كتب الشيعة وتفنيدها دراسة وصفية تحليلية نقدية، رسالة ماجستير غير منشورة، قُدمت الى مجلس كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م.
٣١. سمايلوفتش، أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ط ١، دار الفكر العربي، مصر - القاهرة، ١٤١٨ هـ - م ١٩٩٨ م.
٣٢. شلبي، أحمد، مقارنة الأديان (المسيحية)، ط ٤، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣ م.
٣٣. الصلابي، علي محمد محمد، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط ١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.

٣٤. الطهطاوي، رفاعه رافع، تخلص الإبريز في تلخيص رحلة باريز، د. ط، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة - مصر ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢ م.
٣٥. عامر، أديب، ماسينيون المستشرق الإنسان للبحث في مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية الصادرة عن معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد ٣٢ / السنة الخامسة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
٣٦. عتريسي، طلال، البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان، دراسة وثائقية وتاريخية، ط ١، الوكالة العالمية للتوزيع ١٤٠٧ هـ / ١٩٧٨ م.
٣٧. العقيقي، نجيب، المستشرقون، ط ٤، دار المعارف، القاهرة - مصر ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.
٣٨. كوثراني، وجيه، من الاستشراق إلى مناهج الإنسانية (المدرسة الفرنسية نموذجاً)، مجلة معهد الدراسات العربية والإسلامية، لندن، العدد الأول، ١٩٩٩ م.
٣٩. الكيلاني، فخري، بمناسبة مرور مائة عام على ولادة المستشرق العالم لويس ماسينيون، بحث منشور في مجلة الموقف الأدبي الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب في سوريا، العدد ١٥٥، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
٤٠. مراد، يحيى، معجم أسماء المستشرقين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
٤١. مراد، عمر يحيى، افتراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤.
٤٢. المقداد، محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ط ١، عالم المعرفة، الكويت ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
٤٣. المقدادي، فؤاد كاظم، الإسلام وشبهات المستشرقين، ط ١، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام قم - إيران ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.
٤٤. موريون، جان، لويس ماسينيون، ترجمة منى النجار، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
٤٥. الميداني، عبد الرحمن حسن جنكة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير - الاستشراق - الاستعمار، ط ٨، دار القلم، دمشق - سوريا ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.
٤٦. ناجي، عبد الجبار، الاستشراق في التاريخ، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط ١، بيروت، ٢٠١٢.

٤٧. _____، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨١.
٤٨. النصر الله، جواد كاظم، الإمام علي عليه السلام وتعريب النقود في الإسلام، مجلة تراث النجف، العدد الثاني، ١٤٣٤ هـ.
٤٩. النصر الله، جواد، والكعبي، شهيد كريم، الاستشراق الفرنسي والبعثات اليسوعية لقاء الاستشراق والتبشير، مجلة دراسات استشراقية صادرة عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية كربلاء - العراق، العدد ٤، ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م.
٥٠. _____، الثورة الحسينية في الرواية التاريخية والقراءة الاستشراقية، مجلة دراسات استشراقية، العدد الثاني، ٢٠١٤ م.
٥١. _____، دراسات ورؤى استشراقية في التاريخ الإسلامي، ط ١، المركز الاستراتيجي للدراسات الاستراتيجية، النجف، ٢٠٢٢ م.
٥٢. نصري، أحمد، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم، ط ١، دار القلم، الرباط، ٢٠٠٩ م.
٥٣. النملة، علي إبراهيم الحمد، المستشرقون والتنصير دراسة للعلاقة بين ظاهرتين مع نماذج من المستشرقين المنصرين، ط ١، مكتبة التوبة، الرياض - السعودية، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م.
٥٤. الهاشمي، حسن علي، قراءة نقدية في كتاب تاريخ القرآن للمستشرق ثيودور نولدكه، المركز الإسلامي للدراسات الاستشراقية، ط ١، ٢٠١٤.
٥٥. هوار، كليمان، الدروس العربية في فرنسا، ترجمة: الشفالية عبد الله بك، منشور ضمن كتاب (كتابات المستشرقين عن نتائجهم) جمع ودراسة: حامد ناصر الظالم، ط ١، البصائر، بيروت، ٢٠١٤.
٥٦. هونكة، زغريد، شمس الله تسطع على الغرب، ط ٨، ترجمة، فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.
٥٧. وات، مونغمري، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة: حسين أحمد أمين، ط ١، ١٩٨٣، مصر - القاهرة.

58. **Andrew, Christopher M, Cania Forstner, Alexander Sydney** The Peak of French Imperial Expansion, 1914-1924. Stanford University Press, Londres, 1981.
59. **Blockmans, W. P., & Prevenier, W.** / The Promised Lands: The Low Countries Under Burgundian Rule, 1369 1530. University of Pennsylvania Press. 1999.
60. **Ronald Storrs. Lawrence of Arabia, Zionism and Palestine , 1940 .**
61. **Borden, Michael,** Middle East Restore: Sir Mark Sykes, imperialism and Sykes, 2018.
62. **Borrmans: Massignon .**Jésus et Marie, Hallâj et Fâtîm, Islamochristiana, UNiversity Platform for research on Islam, vol. 36, 2010.
63. **Bourgin: Georges ,** Guibert de Nogent. Histoire de sa vie (1053-1124) Publisher Paris , Publication date 1907.
64. **Belames ,** the writings of muhammad hamidullah in French trends and novelties Islamicus, Islamic Economics Institute, King Hamdard Islamicus, 67, Vol.XL, No.4, Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia.
65. **Christian: Jambet .**Parfrancois Angeler, Fransois L'yvoneet Souad Ayada, Louis Massignon Écrits Memorables, Paris, 2009.
66. **Sherwood, Yvonne, and Kevin Hart, eds.** Derrida and Religion: Other Testaments. New York: Routledge, Taylor & Francis Group, 2005.
67. **destremau: Christian. Moncelon: jean/** Louis massignon, Librairie Plon, Paris, 1994.
68. **Gerard D. Khoury.**Louis Massignon Au Levant Ecrits politiques, Editions Albin Michel, (1907-1955) .
69. **Krokus :Christian S .** The Theology of Louis Massignon: Islam, Christ, and the Church, Catholic University of America Press, Washington, D.C. 2017.
70. **Lavoix : Henri .**Catalogue des monnaies Musulmanes de La bibliotheque Nationale. Paris. 1887.

- 71. Lawrence James Weidenfeld & Nicolson** Imperial Warrior, The Life and Times of Field Marshal Viscount Allenby 1861 - 1936, 1993.
- 72. Manoeh Penicaud** Louis Massignon Le Catholique Musulman, Bayard Editions 18, rue barbes 92128 Montrouge Gedex, 2020
- 73. Massignon: Louis** Les maîtres qui ont guide ma vie (inédit). In. Horizons Maghrébins – Le droit à la mémoire. N°14-15, 1989. La notion d'Occident Musulman/Louis Massignon homme de dialogue des cultures.
- 74. Massignon :** Parole donnée Introduction de Vincent Monteil.
- 75. Maurice Borrmans** .Massignon, Jésus et Marie, Hallâj et Fâtîm, Islamochristiana, UNiversity Platform for research on Islam, vol. 36, 2010.
- 76. Nasr: Hossein** Traditional Islam in the Modern World, London, 1987.